وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

خلوا: خلا به وإليه ومعه: سأله أن يجتمع به في خلوة ففعل. خلا بالشيء: انفرد به و لم يخلط به غيره. وقيل إن ﴿إلى﴾ هاهنا بمعنى "مع" كما في قوله تعالى ﴿مَن أنصاري إلى الله﴾. يقال: خلاك ذم: ابتعد عنك (الأقرب).

شياطين: جمع شيطان، وهو إما من "شطن" أو "شاط". شَطَنه: خالفه عن نيته ووجْهه؛ أبعده. شطن عنه: بعُد. شطنت الدار: بعدت. شطن الرجل: بعد عن الحق. الشطن: الحبل الطويل. فالشيطان من هذا الباب هو النائي عن الحق والذي يسعى لإبعاد غيره عنه، ويفكر دائما في الشر كأنه احتكر مخالفة الخير (الأقرب). وشاط الشيءُ: احترق. واستشاط غضبا: إذا احتدَّ في غضبه والْتَهَب. شاط فلان: هلك. فالشيطان من هذا الباب من يحترق حسدا وتعصبا ويهلك. وتطلق كلمة شيطان أيضًا على روح شريرة؛ العاتي المتمرد من إنس أو جن أو دابة؛ الحية الصغيرة. والشيطان هو الهالك، وفي الحديث: "الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب".. فقد سُمي راكب وراكبان بالشيطان لأنهما أكثر عرضة للهلاك على يد السارقين وقطاع الطرق (الأقرب).

مستهزئون: هزأ به ومنه: سخر منه. استهزأ: هزأ (الأقرب). هزئ الرجل: مات. وأهزأه البردُ: قتله. المستهزئ بالشيء المستخف به (اللسان).

التفسير: المراد من الشياطين في هذه الآية رؤساء الكفار والمنافقين اللذين ابتعدوا عن الإسلام كبرا وصلافة، ونفروا عن الحضور عند رسول الله ﷺ. وكانوا لا يدعون أتباعهم ومن يلونهم من الناس ليتجهوا نحو الصراط المستقيم، فجعلوهم كما حكى القرآن عن لسانهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ (الأحزاب:٦٨). فلا يصح أن يُراد هنا بالشيطان إبليس.

كما أن كلمة شياطينهم ليست سبًّا لرؤساء اليهود والمسيحيين، لأن الشيطان كما بينا في معاني الكلمة، هو المخالف عن الوجه والذي يعرض نفسه للأخطار. وثانيا قد خاطب النبي ﷺ أصحابه بقوله: "الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب". وثالثا جاء في الإنجيل "فالتفت وأبصر تلاميذه، فانتهر بطرس قائلا: اذهب عني يا شيطان، لأنك لا تهتم بما لله، لكن بما للناس" (مرقس:٣٣،٨)، "أيها الحيات أولاد الأفاعي، كيف تهربون من دينونة جهنم " (متى ٢٣: ٣٣)، "فلما رأى كثيرين من

الفَريسيين والصَّدوقِيّين يأتون إلى معموديته قال لهم: يا أولاد الأفاعي، مَن أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟ " (متى ٣:٧)

والعجيب أن بعض الكتاب المسيحيين ينتقدون وصف هؤلاء الناس بالشياطين وينسون ما جاء في كتابهم المقدس على لسان المسيح الناصري عليه السلام. فكلمة شياطين وردت طبقا للأسلوب العربي المبين، وهي ليست من قبيل الشتائم أبدا، وهذا المعنى الذي أوردناه عن كلمة شيطان واستعمالها ثابت عن الصحابة وكبار العلماء أيضًا: نقل ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنه: إذا خلوا إلى شياطينهم من اليهود الذين يأمرونهم بالتكذيب. ونقل ابن جرير أيضًا عن قتادة أن المراد بقوله ﴿إذا خلوا إلى شياطينهم﴾ إخوانهم من المشركين. ونقل عن مجاهد أنهم: أصحابهم من المنافقين والمشركين. ونقل عن عبد الله بن مسعود: أنهم رؤوسهم في الكفر (تفسير بن جرير).

ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

يمدُّهم: مدّهُ في غيّه: طوَّل له وأمهله (الأقرب).

طغيان: طغى: جاوز القدر والحد. طغى الرجل: أسرف في المعاصي والظلم. طغى الكافر: غلا في الكفر. طغى الماء: ارتفع وزاد إلى حد الفيضان (الأقرب).

يعمهون: عَمَهَ: تحير في منازعة أو طريق؛ تردد في الضلال. العمه أن لا يعرف الحجة. ويطلق العمى على فقدان البصر أو البصيرة أما العمه فيطلق على أعمى البصيرة (الأقرب). فمعنى ﴿يعمهون﴾ أنهم يتخبطون في ممارساتهم الظالمة، أو عقولهم لا تعمل.

التفسير: بيَّنا في شرح كلمات الآية العاشرة أن الأسلوب العربي يعبر عن عقاب الجريمة بنفس لفظ الجريمة، فعقاب المخادعةِ الخداعُ، وعقاب الاستهزاءِ الهزءُ، فكأن المجرم وقع في نفس جريمته. وإذن لا وجه للاعتراض على عبارة ﴿الله يستهزئ بهم ﴾، لأن معناها أن الله يعاقبهم بجريمة استهزائهم. إن روح القرآن الكريم تتعارض مع الاستهزاء والسخرية، وترجمة هذه الآية في بعض التراجم على أساس هذا المفهوم الخاطئ جهل بالأسلوب العربي.

كما أن الاستهزاء يعني الكذب أيضًا، وقول الله تعالى بريءٌ من ذلك وقد قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ (النساء:١٢٣).

وفضلا عن ذلك فإن الكلمة التي تسند إلى الله تعالى وإلى الإنسان تفقد مدلولها المختص بالإنسان إذا أسندت لله عز وجل. فإذا قلنا إن الله يتكلم، فلا يراد بذلك أبدا أن الله تعالى يتكلم كالإنسان بلسان وشفتين وحنجرة.. وإنما المراد ظهور ألفاظ مسموعة للإنسان بقدرة الله. وقد وصف الله تعالى نفسه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى:١٢).

وعلى ضوء هذا التفسير يكون معنى قوله ﴿الله يستهزئ بهم﴾ أنه يعاقبهم باستهزائهم ويخزيهم بين أيدي الناس، ويجعلهم أضحوكة لهم.

ومما يجدر بالانتباه أن المنافقين قالوا للمؤمنين: ﴿إنما نحن مصلحون﴾، بينما قالوا للكفار: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾. هذه شهادة فطرية من المنافقين على حال المؤمنين وحال الكفار. فكانوا يدركون أن المؤمنين لن يقبلوا منهم عذرا بأنهم كانوا يستهزئون بالكفار، وإنما يستاءون من هذا القول. أما عن الكفار.. فكان المنافقون يعلمون أنهم لخلو قلوبهم من التقوى، لن يستاءوا من قولهم: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾، بل سوف يفرحون بهذا الجواب الساخر لعداوتهم للمؤمنين. فقول المنافقين هذا ينهض شهادة تلقائية مؤثرة على ما ناله المسلمون من مكارم الأخلاق، وعلى خلو الكفار من التقوى.

وقوله تعالى: ﴿ويمدهم في طغيانهم﴾ أنه يمهلهم، لا ليزدادوا في الضلال.. وإنما لإتاحة الفرصة أمامهم للتوبة والإصلاح، كما قال عز وجل: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الأنعام:١١١). ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ (فاطر:٣٨).

ففساد أعمالهم، وعدم تذكرهم بآيات الله، وإصرارهم على الإعراض عن النذير، وإهمالهم التدبر فيما أنـــزل إليهم من ربهم.. يحرمهم معالم الطريق الصحيح، ويستمرون في ضلالهم الذي يسوقهم إلى التخبط في مزيد من الضلال. وهذا هو معنى ﴿يعمهون﴾ أي يترددون في الضلال ويضربون في الأرض من دون علامة تهديهم.

أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٧

شرح الكلمات:

اشتروا: اشترى وشرى: مَلِكَ بالبيع. ومن ترك شيئا وتمسك بغيره فكأنه اشتراه. واشترى بمعنى باع أيضًا (الأقرب والمفردات).

الضلالة: الضلالة ضد الهدى. ضل عنه: لم يهتد إليه. وضل الرجل في الدين ضلالة: ضد اهتدى. ضل فلان الفرس: ضاع عنه. ضل الماء في اللبن: خفي. ضل فلان فلانا: نَسِيَه. ضل الناسي: غاب عنه حفظُ الشيء. ضل سعيه: عمل عملا لم يعُد عليه نفعه (الأقرب).

التفسير: ﴿اشتروا الضلالة بالهدى﴾ تتضمن معنيين: الأول، أنهم اشتروا الضلالة وباعوا الهدى في مقابلها. فالإنسان مخلوق على الفطرة السليمة التي وهبها الله تعالى إياه، وزوده بالقوى التي يمكنه بها أن يميز بين الخير والشر، ولكن التربية السيئة والرفقة الشريرة والأعمال الذميمة تفسد هذه الفطرة وتفقدها القدرة الموهوبة. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى فقال: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ (الروم:٣١)،

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الأِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٥).

وقد ذكرها الرسول ﷺ في قوله: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه" (مسلم، كتاب القدر). فمن خسر هذه النعمة الإلهية بسوء عمله واستمسك بالضلالة فقد دخل هذه التجارة الكاسدة: شراء الضلالة بالهدى.

والمعنى الثاني أن المنافقين فضَّلوا الضلالة على الهدى، ذلك أن الله تعالى قد وهب الإنسان القدرة على التمييز بين الخير والشر ثم خيّره من ناحية، ومن ناحية أخرى أرسل الرسل وأنـــزل معهم الكتاب يعرض فيه الهداية على الناس.. في الوقت الذي كان الشيطان وأتباعه يروّجون للتعاليم الضارة. وقد أساء المنافقون الاختيار وتقبلوا الضلالة الشيطانية المهلكة ورفضوا الهداية النافعة، فبئس الاختيار!

ويظن المنافقون أن سلوك النفاق ربح لهم، إذ يتجنبون به غضب الفريقين، ويكسبون موالاتهم، ويهربون من مسئولياتهم وواجباتهم، ولكن الآية تقول: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾، أي أن الأمر بعكس ما يتوقعون، فهم الخاسرون. وليت الأمر يقف عند الخسران والهوان الدنيوي، ولكن العقاب الأخروي ينتظرهم، لأن من افتقر إلى الهداية من شأنه أن يضل عن الهدف. فهم يخسرون الدنيا، و﴿ما كانوا مهتدين﴾ فيخسرون الآخرة أيضًا.

وتعلمنا الآية الكريمة حقيقية هامة هي أن أي عمل للإنسان له نتيجتان؛ إحداهما عاجلة، والثانية آجلة. فمن يُقبَضْ عليه وهو يسرق مثلا يلقَ العقاب والمذلة في هذه الحياة الدنيا، وهذه هي النتيجة

العاجلة لفعلته، وبسبب انقياده وراء هذا العمل تضعف فيه القدرة على رؤية الحق والهدى وقبولِه، وهذه هي النتيجة الآجلة. ومن يفعل الخير يجد نتيجته العاجلة في رضاه عن نفسه وارتفاع شأنه بين الناس؛ ونتيجته الآجلة أنه يزداد معرفة بالخير، وقدرة على فعله واتباع سبيل الهدى.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

مَثَلُهم: المَثَل هو الشبيه والنظير؛ الصفة؛ الحجة، يقال: أقام له مثلا أي حجة؛ القول السائر بين الناس؛ الحديث؛ العبرة؛ الآية (الأقرب). المثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره (المفردات).

استوقد: استوقد النار: أشعلها (الأقرب).

أضاءت: أضاءت النار: استنارت. أضاءها: أشعلها (المفردات).

ظلمات: جمع ظلمة، والظلام والظلمة: ذهاب النور، وقيل عدم الضوء عما من شأنه أن يكون مضيئا. ويكنى بالظلمة عن الضلالة، وبالنور عن الهدى (الأقرب). ويعبر بها عن الجهل والشرك والفسق. وجاءت كلمة ظلمات إشارةً إلى أنه فضلا عن الظلمة الظاهرية فإن المكان أيضًا محفوف بالأخطار الأخرى العديدة. ولقد وردت الكلمة في القرآن دائما بصيغة الجمع إيماء إلى أمر أخلاقي أو روحاني.. لأن المعاصي وسوء الأخلاق لا تبقى على حالها، بل تتفاقم ويترتب عليها مزيد من المعاصي والمصائب.

يبصرون: أبصره: رآه؛ أخبره بما وقعت عينه عليه. أبصر فلانًا: جعله يبصر. أبصر الطريقُ: استبان ووضح (الأقرب).

التفسير: تبين هذه الآية التطورات التي واجهها المنافقون، إذ إنهم أوقدوا النار، ثم إذا انتشرت أضواؤها أصابتهم الغشاوة، فحرموا الرؤية، ولم ينتفعوا بها. والمراد من إيقاد النار هنا وصول الدعوة الإسلامية إلى المدينة، لأن الرسول ﷺ تلقى الدعوة للذهاب إلى هناك من أهل المدينة، وكان المنافقون من بين الجماعة الداعية. ولكن عندما انتشر نور الإسلام أصابهم البغض والحسد، واتجهوا إلى أعداء المسلمين، وفي النهاية عموا وفقدوا بصارتهم وبصيرتهم. ومن الحقائق الروحية أن من يضل بعد الاهتداء يهوي إلى درك سحيق، ويفقد ما ناله من قبل.

إن التعبير عن التعاليم الدينية والآيات السماوية بلفظ ﴿النار﴾ وارد في القرآن الكريم، فعندما كان موسى عليه السلام عائدا من مَدْيَن رأى تجليا سماويا بصورة النار حكاها القرآن في قوله: ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً﴾ (القصص:٣٠). فلما اقترب إليها ناداه الله تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (القصص:٣١). وكذلك شبه الكلام السماوي بالنار في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ (النور:٣٦).. مشيرا إلى أن الذين لهم فاعلية روحية قوية، تكاد تتوقد روحانيتهم من تلقاء نفسها قبل أن تتلقى الوحي الإلهي الذي عبر عنه بالنار.

فالمنافقون لما وجّهوا الدعوة مع أهل المدينة إلى الرسول الله ﷺ جاءهم مُظهرا للتجلي الإلهي، فأضاء كلام الله جوانب النفوس، عندئذ ثار الحسد في قلوب المنافقين فحرموا أنفسهم من الخيرات.

وتشبيه التجلي السماوي والكلام الإلهي بالنار ليس عجيبا، فقد عبر العرب عن المحبة بالنار. وإذا كان الحب ينير في نفس المحب تلك المشاعر التي تتملك قلبه وتغلب غيرها من الأحاسيس، فإن التجليات الإلهية والوحي الرباني تقضي على الأهواء الفاسدة وتمحق الميول والنوازع إلى المعاصي، وتطهر القلب من كل سوء فلا يبقى به إلا حب الله تعالى وحب ما يحب.. فتشبيهها بالنار تشبيه صادق ولطيف. كما أنها قد شُبهت أيضًا بالماء في بعض الآيات لما لها من تأثيرات أخرى مناسبة.

وفي الأسلوب العربي يعبر عن الحرب أيضًا بالنار. تقول العرب: خمدت ناره أي انهزم في الحرب. وقد ربط العرب النار بالحرب حتى إنه إذا خمدت نار فريق أثناء المعركة تشاءموا. وقد فرَّ أبو سفيان بجيش المشركين في موقعة الأحزاب بسبب انطفاء نيرانهم بفعل الرياح الشديدة. وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ (المائدة:٦٥).

وعلى ضوء هذا المعنى يكون مفهوم الآية أن المنافقين قد دسوا الدسائس وكادوا المكائد، متعاونين مع الكفار، وألهبوا نار الحرب ضد المسلمين على أمل أنهم سيبيدون الإسلام، ولكن النتائج جاءت على عكس ما تمنوا، فتضاعفت قوة الإسلام، وتأصلت عظمته في القلوب، وبدلا من أن ينتفع المنافقون بمكائدهم ﴿ذهب الله بنورهم﴾ أي فقدوا نور بصيرتهم، وتخبطوا حتى وقعوا في الحفرة التي حفروها للإيقاع بالمسلمين.

وقوله ﴿ذهب الله بنورهم﴾ يعني أيضًا أن العباءة النورانية للإسلام التي لبسها هؤلاء المنافقون نزعها الله منهم، بمعنى أن الكفار لم ينتصروا في هذه الحرب التي أشعلوها ولكن انكشف نفاقهم بسببها.. ذلك أنه بعدم اشتراكهم في الحروب ظهر بطلان ادعائهم بالإيمان، وبالتالي تبين للمسلمين خطأ حسن ظنهم بأنهم مسلمون.

والمعنى الثالث هو أن ازدهار الإسلام كشف عن حقيقة المنافقين. ذلك أنه كلما اكتمل الدين وازداد النور الإلهي، كثرت أحكام الشريعة، وهذا يثقل على المنافقين أكثر فاكثر.. مما يفضحهم فيسلب عنهم لباس النور.

وقوله ﴿تركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ يدل على أن المنافقين أوقدوا نار الحرب ليحققوا بها أهواءهم ويسترجعوا بها عظمتهم، ولكن أمرهم انقلب ضدهم بانكشاف نفاقهم وتراكم الظلمات عليهم، فاستفحل نفاقهم وزاد غيظهم وكيدهم وفقدوا الرؤية للخروج منها.

وباعتبار أن النار هي نور الإسلام.. يكون المعنى أنهم استدعوا الإسلام بأنفسهم ثم أعرضوا عنه، فحرمهم الله من نور الفطرة السليمة، وكذلك من نور الوحي الإلهي وبركاته.

صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨

شرح الكلمات:

صُمٌّ: صم الرجل: انسدت أذنه وثقل سمعه أو ذهب، فهو أصم. والرجل الأصم من لا يُطمَع فيه ولا يُرَدُّ عن هواه (الأقرب).. كأنه يُنادى فلا يسمع.

بُكم: البُكم: الخُرس مع عيٍّ وبَلَهٍ. وقيل هو الخرس أيًا ما كان. وقال ثعلب: البُكم أن يولَد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر. وقال الأزهري: بين الأخرس والأبكم فرق في كلام العرب، فالأخرس الذي خُلق ولا نطقَ له كالبهيمة العجماء، والأبكم الذي ينطق بلسانه وهو لا يعقل الجواب ولا يحسن وجه الكلام (اللسان).

عُميٌ: جمع أعمى. عَمِي الرجل: ذهب بصره كله؛ ذهب بصر قلبه وجَهِل؛ غَوِيَ (الأقرب).

التفسير: تقدم الآية وصفا ملائما لحال المنافقين، فهم صم لأنهم لم يسمعوا لكلام الوحي الإلهي، فحُرموا الفائدة من القرآن الحكيم. وهم بُكم لأنهم أغلقوا أفواههم استكبارا وغرورا، ولم يستفهموا الرسول ﷺ عما اشتبه عليهم من أمر، وإنما أخذتهم العزة الكاذبة، ورفضوا أن يكونوا في موقف المتعلم بعد أن كانوا قادة معلمين. وهم عُميٌ لأنهم لم يبصروا ما طرأ على إخوانهم المسلمين من تغيرات رائعة. لقد كانت أمام المنافقين فرص عديدة للسمع والكلام والنظر في بيوتهم أيضًا. ألم يلحظ شيخ المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول ما أصبح عليه سلوك ابنه عبد الله "رضي الله عنه"؟ ألم ير كيف تحول ابن كذاب جبان إلى رجل صادق برّ طاهر شجاع باسل، وكيف صار ابن عابد الدنيا عبدا لله تعالى لا يكفّ عن السجود لذي العرش العظيم؟ ألم ير المنافقون أبناء عشيرتهم وما يجري في بيوتهم وفي أعمالهم

وفي سلوكهم من عفة وطُهر وأمانة وصدق؟ ألم يروا بني الأوس والخزرج الذين تخلصوا من كل عيب أخلاقي، وفاضت قلوبهم بمحبة الله تعالى.. كيف كانت تسيل أعينهم لذكر الله، وتتغنى ألسنتهم بحمد الله، وكيف كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟ إذا لم يروا ذلك كله وهو أمام أعينهم.. فمن الأعمى إذن؟

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

أو: حرف عطف يفيد معاني عديدة منها: التقسيم، والتخيير، والإباحة، والجمع المطلق أي بمعنى "و"، والشك والاستثناء، والإبهام، والتقريب، والشرط، والغاية، والإضراب، والتبعيض. وهو هنا بمعنى الجمع المطلق والتقسيم (المغني).

صيِّب: الصيب السحاب ذو الصوب (الأقرب). الصيب: السحاب المختص بالصوب، وهو نـــزول المطر بقدر ما ينفع (المفردات).

السماء: كل ما علاك فأظلّك؛ سقف كل شيء؛ ظهر الفرس؛ السحاب؛ المطر الجيد؛ العُشب؛ رواق البيت(الأقرب).

رعد: الرعد صوت السحاب. رعد السحاب: صات وضجّ للأمطار (الأقرب). فيكون معنى الرعد هنا الأوامر الإلهية الجسيمة والوعيد بأنباء الهلاك والدمار والأمر بالحرب.

برق: البرق وميض السحاب (الأقرب). والمراد من البرق هنا المشاهد الحربية، أو النكات العلمية الواضحة، والآيات الدالة على الصدق، والغنائم والانتصارات الإسلامية.

الصواعق: جمع صاعقة وتعني الموت؛ كل عذاب يهلك، صيحة العذاب؛ نار تسقط من السماء في رعد شديد لا تمر على شيء إلا أحرقته (الأقرب). والصاعقة: هي الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منه نار فقط، أو عذاب أو موت. وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء تأثيرات منها.

حذر: الحذر: التحرزُ ومجانبة الشيء خوفا منه (الأقرب).

الموت: زوال الحياة عمن اتصف بها (الأقرب)، زوال القوة الحيوانية وإبانة الروح عن الجسم. وأنواع الموت بخلاف ذلك هي:

الأول ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الإنسان والحيوانات والنباتات: ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم:٢٠).

والثاني زوال القوة الحاسة: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾(مريم:٢٤).

الثالث زوال القوة العاقلة: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ (الأنعام: ١٢٣).

الرابع: الحزن المكدر للحياة: ﴿يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ (إبراهيم:١٨).

والخامس: المنام (المفردات).

وقد يستعار الموت للأحوال الشاقة كالفقر والذل والسؤال والهرم والمعصية (اللسان).

محيط: أحاط بالأمر: أحدقه (الأقرب).

التفسير: بَدءًا من هذه الآية يتحدث القرآن عن فئة ثانية من المنافقين، هم أولئك الذين آمنوا ولكن إيمانهم ضعيف، يخشون الناس أشد من خشيتهم لله تعالى، ويجبنون عن مواجهة تهديد الأعداء، ويتقاعسون عن بذل التضحيات، ويحاولون أن يبقوا على صلتهم ومودتهم مع الكفار، ويراسلونهم ويمدونهم ببعض أخبار المسلمين. وكان هؤلاء النفر يعللون أنفسهم بأن الإسلام دين الله الحق، وأنه لن يتضرر بهذا الذي يفعلون، وأنه منتصر حتما، وإذن فلا ضير عليهم إذا صانوا أنفسهم من إيذاء الكفار ومن بذل تضحيات لا داعي لها!

ولكن القرآن يعلن منذ البداية أنه دين التضحية والفداء، وأن هذا التخاذل نفاق كريه، ومن يلجأ إلى هذا الأسلوب منافق ضال. وما الإسلام إلا أن يسلم المرء كل ما يملك لله رب العالمين، ومن لا يوطن نفسه على هذا الإخلاص والفدائية فلا يرجُوَنَّ ما قدر للإسلام من خيرات وازدهار.

يضرب القرآن مثل هذا الفريق من المنافقين بالسحاب الممطر، وما المطر إلا فضل الله تعالى المبشر بالخير. ولكن المطر يصحبه ظواهر طبيعية تدل عليه، فهناك ظلمات ورعد وبرق.. ولكنها لا تحول دون نزول الخير، ولا تمنع الفلاح العاقل من أن يسارع إلى الانتفاع بالمطر، فيخرج ليعد القنوات والمصارف والحواجز للاستفادة من الغيث. وما من عاقل يترك المطر يتسرب من أرضٍ خشية الرعد أو البرق فيضيع سدًى.

وكذلك فإن ظهور الإسلام هو كغيث سماوي، يلزم أن تصطحبه الظلمات والرعود والبروق. لكن المؤمنين لهم خبرة بمثل هذه الظروف والأوضاع، فبدل أن يضطربوا لها.. يعدون لها عدتها من التضحيات، فينتفعون بها حق الانتفاع. وأما المنافقون ضعفاء العمل فيأخذهم الفزع، فيلزمون بيوتهم، ويحرمون أنفسهم من المنافع المقرونة بازدهار الإسلام وانتصاره، ويستحقون غضب الله تعالى أيضًا.

ثم يقول الله عز وجل: ﴿والله محيط بالكافرين﴾، أي أن هؤلاء المنافقين.. مم يخافون؟ أيخافون إيذاء الكفار الذين قد قضى الله تعالى بهلاكهم؟ لماذا الخوف من المقضي عليهم بالهلاك؟ وهل ينجو الجبان من الصواعق إذا وضع أصابعه في أذنه؟ إن الرعود التي يسمعها تقع بعد أن يترل البرق. فالحذر إذن لا مبرر له، وكان الأولى به أن يسعى للانتفاع بالمطر والاستعداد له.

وكلمة ﴿أو﴾ في قوله تعالى ﴿أو كصيب﴾ لا تعني الشك كما يظن البعض، فالله تعالى هو العليم الخبير، وهو أسمى وأجل عن التشكك والتردد. إن هذا المثل لا يتعلق بفرد واحد، ولكن يتصل بجماعة تتكون من عناصر مختلفة الأوضاع والأحوال، وفي مثل هذه الحالة لا تدل كلمة ﴿أو﴾ على الشك. إذا قلت عن زيد إنه قائم أو قاعد، فقد شككت لأنه فرد واحد. أما إذا قلت عن جماعة إنهم قائمون أو قاعدون فالمراد أن بعضهم قائم والبعض الآخر قاعد؛ وعندئذ لا تفيد الشك.

فالآية تدل على أن المنافقين فئتان: فئة سبق ذكرها وهي التي ضيعت فرصة الهداية، وعطلت مواهبها وملكاتها، وأثارت الحرب في وجه دعوة الإسلام، فوقعوا في الضلالة، وما هم بخارجين منها ما لم يعودوا إلى حواسهم. وفئة أخرى يأخذهم الخوف كل مأخذ كلما رأوا ظلمات الصعاب ورعد الحرب وبرق المحن والقتال، ويسدون آذانهم عندما يرون صواعق المعارضة تنقضّ عليهم، ناسين أن من السنن الكونية أن تكون الظلمات والرعود والبروق مصاحبة لنعمة المطر الذي هو من نِعَم الله الكبرى، وأن هذه الأمور سرعان ما تختفي ويبقى الغيث ونفعه العميم.

إن الآية الكريمة تخبرنا بمجريات الأمور عندما تترل رسالة سماوية وتتجلى في آفاق الدنيا.. فدائما ما تصحبها السحب الداكنة والرعود القاصفة والبروق الخاطفة.. كناية عن ظلمات المصائب والابتلاءات وقطع الصلات بين المؤمنين والكافرين، والهجرة والتضحية بالأموال والأنفس. ثم يأتي الرعد.. أي المجاهرة بالتحدي للدنيا كلها. ثم يظهر البرق.. أي النوازل التي تخطف الأبصار. وقد تتحول البروق إلى صواعق.. أي يتابع الأعداء الهجمات لاجتثاث شأفة المؤمنين، ويضطر المؤمنون إلى رد الهجوم، ويصاب فيها بعض المؤمنين أحيانا. ويخاف ضعاف القلوب من المنافقين جميع أنواع المشاكل، ولكنهم على وجه خاص.. تكاد تزهق نفوسهم من هذا الخطر الأخير.

ولقد رد الله تعالى على أولئك الذين يزعمون أن بعثة الأنبياء مدعاة إلى ظهور الفساد والشتات، فأخبرهم بأن المطر نعمة سماوية له منافع عديدة وتصحبه بعض الظواهر الشديدة. كذلك عند بعثة الأنبياء.. تثور العواصف، ولكن هذه ليست علامة شؤم. بل إنها تحمل البشرى بالبركات المقبلة. إن من سنة الله عند المطر أن يخفي السحابُ قرصَ الشمس، ولكن بعد حين.. تشرق الشمس على الأرض،

وهي أحلى ما تكون منظرا، وأشد ما تكون بركة. وهكذا بعثة الرسل فإنه بعد الشدائد والصعاب.. تشرق الشمس الإلهية عقب الغيث الروحاني بأروع ما يكون الإشراق.

وقوله تعالى ﴿والله محيط بالكافرين﴾ يلفت نظر هؤلاء المنافقين إلى تلك الحقيقة، ويقول لهم: من أي شيء تخافون؟ هل تخافون الكفار وأذاهم؟ ألا تؤمنون بأن الله قضى بهلاك أعدائه؟ فكيف تخافون مَن هو هالك لا محالة؟

يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠

شرح الكلمات:

يخطف: خطف الشيء: استلبه بسرعة. وخطف البرقُ البصرَ: ذهب به (الأقرب).

شاء: أراد.

الشيء: كل ما يصح أن يُعلم أو يخبر عنه. ويستعمل المصدر مكان اسم المفعول، فالشيء ما يراد أو يُبتغى أو يُقصد (الأقرب).

قدير: قدر على الشيء: قوي عليه. القدرة: القوة على الشيء والتمكن منه (الأقرب). والقدرة إذا وُصف بها الإنسان فاسمٌ لِهيئةٍ له، بها يتمكن من فعل شيءٍ ما، وإذا وصف الله تعالى بها فهي نفي العجز عنه. ومحال أن يُوصف غير الله بالقدرة المطلقة معنًى، وان أُطلق عليه لفظًا. والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة، لا زائدا عليه ولا ناقصا عنه (المفردات).

التفسير: تشير الآية إلى أن هذه الفئة من المنافقين قاربوا أن يفقدوا بصرهم من شدة خوفهم كلما تعرضوا للمواقف التي تتطلب منهم شجاعة وتضحية. وإذا كانوا لم يفقدوا بصرهم كلية فمن المحتمل أن يفقدوه إذا استمروا على خوفهم ورعبهم. وفقدان البصر هنا كناية عن فقدان الإيمان.

إن للبرق تأثيرين مختلفين على هؤلاء المنافقين: إذا أضاء لهم مشوا فيه، أما إذا صاحبته الصواعق المدمرة أعمى عيونهم ووقفوا مكانهم لا يتحركون. والمراد أنهم إذا أحسوا بالطمأنينة تعاونوا مع المسلمين في أعمالهم؛ أما إذا اشتد البلاء وانقضت صواعق الحرب قاموا فزعين وتخلوا عن طريق المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ تحذير لهذا الصنف من المنافقين: أن احتفظوا بشجاعتكم واسلكوا مسلك المؤمنين. لقد وفقتم حتى الآن إلى المحافظة على إيمانكم بسماع آيات القرآن الحكيم، ولكن إذا استمر حالكم هذا من النفاق.. فمن الممكن جدا أن يضيع هذا الإيمان، ولا يفيدكم سماع القرآن شيئا. وهناك أيضًا خطر فقدان بصركم؛ أي أنه بتواتر نزول صواعق المحن والمصائب تخذلون المسلمين وتتخلون عنهم. إنكم تنضمون إليهم كلما ترون ومضات النور، ولكن يُخشى عليكم فقدان هذه الفرصة فتضيع منكم بصيرتكم الروحانية تماما.

وهذه من الآيات التي يصعب تفسيرها، ولقد فسرها الآخرون بطريقة مجملة. وبتوفيق من الله تعالى تمكنت من تفسيرها جزءا جزءا، ثم الربط بين عناصرها من ناحية وبينها وبين الآيات السابقة والتالية لها من ناحية أخرى.. فلا يبقى في فهمها أي غموض.

يظن بعض الناس أن القرآن الكريم لا يقول بوجود النفاق بالأعمال، ويرون أن النفاق المذكور في قوله تعالى: ﴿أو كصيب... الآية﴾ هو أيضًا عن المنافقين في عقيدتهم. أذكر عندما كنت أدرُس القرآن مع الحافظ "روشن علي"، وكان من العلماء الإجلاء الموهوبين بملكة خاصة في استنباط معاني القرآن الكريم، على يد أستاذنا حضرة مولانا نور الدين قبل توليه منصب الخلافة، كان الحافظ روشن يناقشه كثيرا حول موضوع النفاق، وكان يقول بأن نفاق الأعمال محال عقلا، وأن المنافق هو من فسدت عقيدته.

وأرى هذه الآيات تبين أحوال المنافقين بالعمل. وقد وجدت حديثا يذكر المنافقين بالعمل، فعن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ: "القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على أغلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره. وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر. وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرعة يمدها القيح والدم.. فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه" (مسند أحمد بن حنبل).

فهذا الحديث يبين أن هناك منافقا يعتبر مسلما من حيث الإيمان، ولكنه ضعيف من ناحية العمل. فإن غلبت حالته الإيمانية أصبح مؤمنا صادقا، وإن غلبت حالة النفاق عليه صار منافقا كاملا.. أي يضيع إيمانه.

هذا الموضوع يشرح هذه الآية لأنه يبين أن سمع وبصر هؤلاء لم يزولا بعد، ولكن لو استمروا على هذا الحال فهناك خطر كبير لضياعهما.

ومن نعمة الله تعالى أن البرق لا تصحبه الصواعق دائما، ومعنى ذلك أن الشدائد التي لا بد من مواجهتها لا تكون في معظم الأحوال مهلكة؛ والخير الناجم عن هذه الشدائد أكبر بكثير من أذاها ومشاقّها. فالعاقل من انتفع بها فواجهها بشجاعة، وبذل في سبيل الله تعالى غير هيّاب ولا وَجِل.

إن الآية الكريمة تحذر المؤمنين أيما تحذير. إنها تخبرهم بأن الله تعالى عندما يرسل رسالة يجعل طريقها محفوفة بالمشاكل والشدائد، وإن سبيل الدين لا يُفرش بالأزهار والورود، بل ينال الإنسان بغيته من الدين باجتياز الغابات الشائكة. ومن أراد الإيمان ولذته، فعليه أن يتحمل المشقات، ويعرف الآلام، ويقدم التضحيات بكل ما يلزم لبلوغ هذه الغاية. والذي يتنصل عن التضحية ثم يزعم بأنه يريد الإيمان إنما يتصرف تصرف الحمقى، لأنه يريد التقرب إلى الله بالنفاق.. ومن المستحيل أن ينجح ويبلغ غايته. إن الباحث عن الحق إذا أدرك ذلك حق الإدراك ففلاحه أكيد وإذا لم يدرك هذه الحقيقة صار نهبة للأوهام والأماني الكاذبة، وباء بغضب من الله بدل من أن ينال فضله.. والعياذ بالله!

وقوله تعالى: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ يدل على أن الخوف الذي يتسلط على قلوب ضعاف الإيمان ناتج عن نقص إيمانهم وجهلهم بحقيقة صفاته جلّ وعلا. لماذا يخافون التضحيات يا ترى؟ إنما سببه خوفهم من أذى الكفار. والحقّ أنهم لو أيقنوا بقدرة الله تعالى حق اليقين، ما وقعوا في مثل هذه الشبهات. لو أيقنوا أن الله قادر على ما يريد، لما خافوا الكفار. ألا فليعلم المنافقون أن الله تعالى قدير على كل ما يقضي به من الأمور، لا مانع ولا حائل دون إرادته. فإذا كان تعالى قد قضى بانتصار الإسلام وازدهاره فكيف يحول الكفار -مهما كثُر عددهم وعدتهم- دون ما يريد؟ تذكروا صفات الله وقوّوا إيمانكم حتى يزول عنكم الخوف والتردد إلى الأبد.

إنه مما لا شك فيه أن جميع أنواع الضعف والمعاصي ناشئة عن الجهل بالصفات الإلهية ونقص الإيمان بها. ويجب على الخائف من غير الله أن يستيقن بأن ضعف الإيمان بصفات الله تعالى هو الذي يسبب الخوف، ولولا ذلك الضعف لما كان الخوف أيضًا.

وبمناسبة قوله تعالى ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ سأل بعضهم: هل تعني هذه العبارة أن الله تعالى قدير على أن يكذب أو يموت؟ مثل هذا التساؤل لا يصدر إلا عن قلة تدبر وضآلة فكر. فوصف القدير صيغة مبالغة من ﴿قدر﴾ وتعني ذو القدرة الكاملة. وليس الكذب والموت من الكمال في شيء بل هما من النقائص، وذو القدرة الكاملة منزه عن النقص، ومن ثم فإن صفة القدرة لا تتعلق بهذه النقائص. وإنه لمن السخف أن يقول قائل: إن فلانا عظيم الشجاعة حتى أنه ليفر من الفأر! إن الشجاعة والفرار لا يجتمعان، كذلك كمال القدرة والنقائص لا يتفقان.

كما أن قوله ﴿كل شيء﴾ يعني كل ما يريد، لأن ﴿شيء﴾ مصدر بمعنى المشيئة والإرادة، فمعنى العبارة أن الله تعالى قدير على كل ما يريده. وإرادة الله تعالى كاملة، والكذب والموت وما إلى ذلك بعيد عن الكمال، والله جل وعلا لا يعلق إرادته ومشيئته ومقدرته على النقائص التي لا تليق بجلاله.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

اعبدوا: العبادة: غاية التذلل (المفردات).

ربكم: راجع شرح الكلمة في سورة الفاتحة.

خلقكم: خلق الأديم: قدَّره قبل أن يقطعه. خلق الشيءَ: أوجده وأبدعه على غير مثال سبق (الأقرب).

لعلكم: ﴿لعل﴾ حرف مشبه بالفعل يفيد التوقع والإشفاق، ويختص بالممكن المشكوك في حدوثه؛ وكذلك يفيد التعليل. وجاء في القرآن: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾، أي كي يتذكر أو يخشى. فلعلّ في هذه الآية تعني: كي وحتى.

التفسير: استهل القرآن بإعلان أن خير الدواء ما يصفه العليم الخبير.. ألا وهو الله تبارك وتعالى، وأن القرآن هو الدواء الناجع لتنشئة العالم من الناحية الروحانية؛ فإنه أولا: كتاب جامع للكلمات كلها؛ ثانيا: أنه مبرأ من كل ريب وعيب؛ ثالثا: يفتح باب الرقي بلا حدود، ويتدرج بالمتقي أعلى فأعلى حسب كفاءته. ثم بيّن الشروط التي لا بد منها للانتفاع الكامل بهذا المنهج الرباني. ثم انتقلت الآية إلى بيان موقف الطائفة المنكرة للقرآن. ثم ذكر طائفة ثانية تدّعي الإيمان بلسانها ولكن القلوب من الإيمان هواء، وطائفة ثالثة قلوبهم مؤمنة ولكنهم لا يجرؤون على العمل بما آمنوا به. وبين القرآن أن هذين النوعين لا يستطيعون الاستفادة من القرآن لأنه منهج عملي.. ما جاء لينتسب الناس إليه بالقول، بل ليُحدث تطورًا حاسمًا في حياة البشرية جمعاء، وليس للأدعياء نصيب في خيراته وإنما هي للعاملين به.

ثم في هذه الآية يوجه القرآن الأنظار إلى الوسيلة الوحيدة لتحقيق التقوى في الإنسان والتي بها يبلغ المراتب العليا، ويهنأ بخيرات المنهج الإلهي من سعادة الدنيا والآخرة.. ويقول: إن هذه الوسيلة هي عبادة الله تعالى.

والعبادة تعني التذلل الكامل والاتباع الشامل، أي أن يجعل الإنسان نفسه خاضعة للتأثيرات الإلهية التي تسري فيها بيسر وثبات. إن الاكتفاء بالمظاهر التعبدية غير كاف إذا لم تكن النفس صافية صادقة في تذللها واتباعها.

ومن طبيعة النفس البشرية أن تنفعل للإحسان، وتكون أكمل انفعالا إذا شمله الإحسان هو وآباءه من قبله. والآية تُذكِّر الإنسان بأن الله تعالى صاحب الفضل والإحسان إليه وإلى آبائه وأجداده.. ذلك كي تثير فيه أكمل شعور بالمحبة.. فتقوم عليه العبادة الكاملة. فقوله ﴿اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ يبين أن المستحق للعبادة الحقة هو الخالق الذي أوجد الإنسان وآباءه، وهو الرب الذي ربى الإنسان وآباءه من فضله وإحسانه. وإذا كان المرء يخلص المحبة لمن أسدى إليه جميلا، أو صنع لأبيه معروفا.. فالله تعالى ينعم عليه كل لحظة، وأنعم على آبائه السابقين نِعَمًا لا حصر لها، فهو سبحانه الجدير بالمحبة الكاملة والإخلاص التام.

وفي قوله ﴿الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾ حث الله على العبادة بأسلوب رائع جدا، يبين به حاجة الإنسان إلى عبادة الله تعالى، فيقول: إن الصانع يعرف صنعته، فالمهندس الذي شيد بناء يعرف مقدار الثقل الذي سوف يتحمله البناء، وكذلك الله تعالى.. خالق الإنسان وآبائه، والعليم بما أودع الإنسانَ من القوى والمواهب والكفاءات.. هو وحده القادر على إصلاح الإنسان. أما أن يسلم المرء عنانه لأي معبود آخر.. يجهل صلاحياته، ولا يقف على حدود استطاعته.. فلا بد وأن يدفعه إلى هوة الهلاك. فالعبادة الحقة ليست مجرد تقاليد جوفاء. بل هي التمسك بالمنهج الروحاني.. وهي لله عز وعلا.. لأنه العليم بقوى الإنسان المكنونة، الخبير بأساليب إنمائها والبلوغ بها إلى غاية الكمال.

ثم أتبعه تحديد غاية العبادة وأخبر بأن الهدف المنشود للعبادة ليس مجرد إقرار العبودية لله تعالى، ولو كان كذلك، لكانت عبادة غير الله، رغم كونها ظلما، لا ضرر فيها. ولكن العبادة لا تؤدي إلا لتكميل الروحانية والتقوى، وهذا الكمال لا يمكن أن يتحقق بيد مخلوقات لم تخلق الإنسان ولا تعلم ما أودع فيه من قوى خفية، وما هي خصائصها وحدودها.. ومن ثم فإنها ستحطم هذه القوى الرائعة بدلا من أن تبلغها الكمال.

ولقد رأينا أن الإنسان إذا أسلم قياده لغير الله تعرض للخسارة الفادحة.. فمِن قائدٍ يفتَحُ له أبواب الحرية الحمقاء على مصارعها لينفلت بعيدا عن التقوى وطريق الكمال، وقائد آخر يصرف النظر عن قوى الإنسان فيحمله من الأعباء الثقال ما ينوء به كاهله وتتعطل به قواه ومواهبه؛ ومنهم من يوجهه إلى طريق الرهبانية وترك طيبات الدنيا؛ وآخر لم يميز بين النافع والضار، وسمى الشريعة لعنة، ومن ثم ألقاه في هوة الدمار. فالله تعالى هو الذي أعطاه تعليما لا ينسى به مسئولياته، كما لم يضعه تحت أعباء تدمر قواه

الفطرية. وإلى هذه الأخطار يشير قوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾. فالله تعالى الرب الخالق يدل المرءَ على العبادة التي تتيح له التقدم المستمر في ضوء الفطرة الصحيحة.. لأنه تعالى هو العليم بكل دقائق هذه الفطرة.. فهي من صُنعه وحدَه.

وبقوله ﴿لعلكم تتقون﴾ يشير الله إلى أن الأمر بالعبادة لا يهدف إلى منفعة أو مصلحة خاصة لله سبحانه، بل إنما أريد به خير الإنسان نفسه. فالغاية المنشودة هي تكميل الإنسان بتحقيق المقتضيات الفطرية كاملة غير منقوصة. فالتقوى المقصودة من قوله ﴿تتقون﴾ هي أن يتخذوا الله تعالى وقاية وجُنّة تحميهم من أسباب الهلاك والدمار، ويكون عز وجل مولى لهم.. يرعاهم وينجيهم من المتاهات والهواجس، ويهديهم في طرق الحياة المتشابكة.

وفي قوله تعالى: ﴿اعبدوا ربكم﴾ حكمة لطيفة جديرة بالالتفات. فالرب كما عرفنا هو الخالق المربي الذي يتدرج بمخلوقاته إلى كمال النشوء والرقي. وفي هذا النداء العام قد خُصت هذه الصفة بالذكر لِلَفْت الانتباه إلى حقيقة هامة.. وهي أن الاكتفاء بمجرد العمل وتطبيق أوامر الشريعة لا يجدي كثيرا ما لم تدعمه العلاقة بين الإنسان وربه.. علاقة المحبة والإخلاص له عز وجل. فكل فرد من الناس قد زوده الله عند خلقه بالقوى الأساسية التي لا بد منها للارتقاء إلى الكمال، ولكنهم مختلفون في مدى انتفاعهم من هذه القوى وأوامر الشريعة. وعلاقة المحبة مع الله تجتذب رضاه ومحبته، فيهَب للإنسان هداية خاصة تلائم ذاته وتناسب حالته ليمضي في طريق الرقي قدما. والأمر بعبادة الرب حضٌّ على إخلاص المحبة لله لينال الإنسان من نعمة ربوبيته تلك الهداية التي يهبها لأحبائه المخلصين.

ومن معاني قوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾ أن الذين يقومون بعبادة الرب بيقين وإخلاص ينجون من التعادي والتظالم، ويسود بينهم الأمن والأمان. لقد شهد التاريخ بصدق هذه الحقيقة، فإن صحابة الرسول ﷺ -بعد أن دخلوا في عباد الله المخلصين- كانوا دعاة سلام وحماة أمن وحَمَلَة عدْل، واستراح الناس في ظل حكومتهم متمتعين بالأمن والعدالة، واضطر الأعداء إلى الاعتراف بإحسانهم قبل الأصدقاء. والحق أن الأمن لا يستتب في هذا العالم إلا إذا أصبح الناس عباد الله المخلصين. ولو اصطبغ أهل الغرب بصبغة عباد الله لما طغت عليهم الأهواء الاستعمارية.

إن هذه الآية هامة جدًّا، لأنها تقدم أول أوامر القرآن الحكيم. لقد سبقها ذكر صفات المتقين بأنهم كذا وكذا دون أن يأمر الله تعالى بذلك، والآن جاء الأمر الإلهي الأول فكان بالتوحيد، وذلك بأسلوب لطيف كامل منقطع النظير.. فمثلا: المأمور بالعبادة هو الناس.. أي جميع أهل الأرض.. وليس العرب فقط، بما يدل على أن الإسلام كان منذ أول أمره ولا يزال ينادي بجمع العالم كله على كلمة التوحيد، ويريد أن يخرج أمم الأرض كلها من العبادات القومية المتفرقة إلى حلقة جامعة لكل الأمم. ثم ذكر

المعبود عز وجل بأنه الرب.. دون تعيينه بلفظ الجلالة "الله"، وبذلك أبطل وجود آلهة أخرى من الأحجار والأنهار والجبال والكواكب، لأنه قال: ﴿اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾. ثم نفى وجود آلهة من بين الآباء والأجداد بقوله: ﴿والذين من قبلكم﴾.

إن علامات العبادة في مختلف الأمم، كما أقرّ علماء المقارنة بين الأديان، تنشأ عن طريقين اثنين، وهما: الحب أو الخوف. وهذه الآية تتضمنهما معًا؛ فقوله ﴿الذي خلقكم﴾ يشير إلى الحب، بينما قوله ﴿لعلكم تتقون﴾ يحتوي على معاني الخوف. ثم إن الحبّ ينبع من عينين اثنتين: هما الحُسن والإحسان. وهذه الآية على إيجازها.. تقدم هذين الأساسين لإنشاء علاقة الحب مع الله عز وجل. إنه تعالى ذو حُسن أخّاذ، لأنه ربٌ، وما أبرعه من صانع! يخلق شيئا في هيئة بدائية منحطة، ثم يتدرج بارتقائه إلى منتهى الكمال. ثم تعرض الآية الإحسانَ عرضًا رائعًا، إذ تصرح بأن الله عز وعلا هو المحسن إليكم وإلى آبائكم أيضًا، لأنه خالقهم جميعًا.

فبقوله تعالى ﴿لعلكم تتقون﴾ أشار إلى الخوف من سخطه، كما نبّه أيضًا إلى إحسانه إليهم في المستقبل. فما أبلغَها وما أشدَّها إعجازا مِن آية حوت هذه المعاني الواسعة كلها في بضع كلمات! فتبارك الله أحسن الخالقين!

ومن الغريب جدا حسبما جاء في العهد الجديد أن المسيح الناصري عليه السلام حينما سئل عن أعظم وصايا في الشريعة، أجاب: "تُحبّ الربَّ إلهك مِن كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك، هذه هي الوصيةُ الأولى والعظمى، والثانية مثلها؛ تُحبُّ قريبك كنفسك" (متى ٢٢:٣٧ إلى ٣٩).

مع أن الوصية الأولى والعظمى التي كانت تجدر بالذكر هي التمسك بالتوحيد. والعهد القديم آخّر هذا الأمر الأهم، وكذلك سائر الكتب.

أليس ذلك من فضل القرآن على سائر الكتب السماوية، أنه قدم الأمر الأول الأحق بالتقديم، بقوله عز وجل: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾، بينما سائر الكتب السماوية أخّرته إلى غير موضعه؟

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ

شرح الكلمات:

فراشا: فرش الشيء بسطه ومدّه. الفرش: ما يفرش على الأرض للنوم أو الجلوس عليه (الأقرب). الفرش: بسط الثياب، ويقال للمفروش: فَرْش وفِراش. وقوله: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض فراشا﴾.. أي ذلّلها بحيث يمكن الاستقرار عليها. والفراش ما يُفرش من الأنعام أي يُركَب (الأقرب).

بناء: جمعه أبنية، بنى: عكس هدم. بنى المنزل: شيّده. بنى الأرض: عمَّر فيها دارا (الأقرب).

والبناء: اسم لما يُبنى؛ سطح البيت، السقف (المفردات).

السماء: السحاب.

الثمرات: جمع ثمرة وهي حمل الشجر (الأقرب). الثمر: اسم لكل ما يُتطعَّم من أحمال الشجر (المفردات).

رزقا: (راجع الشرح السابق في الآية رقم ٤).

أندادا: النّد هو المثل والنظير (الأقرب). وندُّ الشيءِ: مشاركه في الجوهر، ومثله: مشاركه في أي شيءٍ كان. نِدُّ الشيءِ: ما يسدُّ مسدَّه. قال ابن الأثير: هو مثل الشيء الذي يضاده في أموره وينادُّه أي يخالفه (التاج).

التفسير: أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه خالق الكون المحيط بالإنسان من سماء وأرض. وبهذا يذكِّر الإنسان بأثر البيئة الخارجية على عمل الإنسان وحياته. فكل أعمال الإنسان تدور حول الزراعة والصناعة والتجارة والضرب في الأرض والسياحة فيها، وهذه جميعها ترتبط بأجواء السماوات وأنحاء الأرض، وتتأثر بتأثيراتها. ولا يمكن لأحد أن يوجه أعمال الإنسان إلى الصراط المستقيم إلا مَن خلق السماوات والأرض، والذي جعل فيها ما فيها من قوى فعالة في حياة الإنسان. نعم، إن الهداية الكاملة في هذا المجال في يد الخالق وحدَه.

السماوات بأجرامها وأفلاكها وأجوائها.. لها دخل كبير بما يجري على الأرض من رياح وأمطار وفيضانات وعواصف، وهذه تؤثر تأثيرا مباشرا في الزراعة والنقل والاتصال، وترتبط بها سلامة الإنسان وأمنه وصحته ومرضه، ولها علاقة وثيقة بما يصيب الحياة الأرضية من حوادث وكوارث وأمراض. والرب الخالق المسيطر على هذه العوامل كلها.. هو وحده القادر على أن يهدي الإنسان في خضَّم هذه المؤثرات الجبارة.. التي لا يملك زمامَ أمورها وأسرار عملها إلا الله تعالى؛ فهو القادر على أن يُسخِّر كل هذه الموجودات لخير الإنسان، وليس أحد غيره يملك القدرة والعلم والسلطان.. وعلى هذا فهو الجدير بالعبادة الخالصة وحده.

إن هذا الكون يضم عددا لا حصر له من خلق الله، وكلها تؤثر في حياة الإنسان تأثيرات متنوعة مستمرة، وعلم الإنسان لا يحيط بكل هذه الموجودات، ولا يمكن للإنسان أن يدرك كل هذه الوسائل الظاهرة والخفية، ولا أن يعرف أثرها ضررا أو نفعا. ومن ثم فالواجب عليه أن يلجأ إلى الرب الخالق المسيطر على كل هذه الأكوان، يستمد منه الهدى، ويطلب منه التوفيق، ويسأله المعونة، ويدعوه ليصونه من مضراتها الخفية أو الظاهرة، وينفعه بخيراتها المعروفة أو المجهولة.

أفلا تنظرون إلى أنبياء الله تعالى، لم يدّخر أعداؤهم حيلة ولا وُسعًا لاستئصال شأفتهم، ولكن الله ربهم المقتدر أحبط مكائد الأعداء وبدَّدها. لقد دبر أعداء المصطفى ﷺ مؤامرات عديدة للقضاء عليه، وتعرض لهجماتهم العدوانية، فتارة حاولوا قتله بالسُّم الفتاك، ولكن الله عز وجل نجاه من هذه الدسيسة الشيطانية، وهلك أحد صحابته الكرام في هذه المكيدة. وتارة أخرى ترصدوا له ليفتكوا به في داره وخلوته، لكن جهودهم باءت بالفشل الذريع. وحدث أن احتال اليهود ليلقوا عليه صخرة، ولكن العليم الخبير أنبأه بالوحي، فنجا من المؤامرة. ولنذكر كيف ألقى الله تعالى الغشاوة على أعين الكفار عند مغارة ثور وهم يطلبون الرسول ﷺ ليقتلوه.

ولننظر إلى المسيح الناصري عليه السلام كيف حاول أعداؤه قتله على الصليب، بل قتلوه حسب زعمهم، وكيف أرسل الله تعالى ريحا عاصفة اضطرتهم ليتزلوه من الصليب قبل أن يهلك، وهكذا نجاه من ميتة خزي وعار أرادها له اليهود.

ولقد ظهرت في أيامنا هذه عشرات الخوارق على يد المهدي والمسيح الموعود عليه السلام.. فعلى سبيل المثال أخبره الله تعالى أن داره ستظل آمنة مصونة من الطاعون الجارف الذي اكتسح قاديان "بالهند" وما حولها لسنين طويلة، وبشره بقوله: "إني أحافظ كلّ من في الدار".. فلم تُصَب داره بأي مكروه. وأيضًا كان أيامَ شبابه مُقيما في أحد البيوت بمدينة سيالكوت، وكان معه ذات ليلة بعض الضيوف، ومنهم رجل هندوسي اسمه "بيم سين"، وحدث أن سمع حضرته صوتا غريبا في سقف الغرفة التي كان ينام فيها ومعه الضيوف، فأيقظ مَن معه وأخبره أن الله تعالى أطلعه على أن السقف سيتداعى وينهار، ولذلك عليهم جميعا أن يخرجوا من الغرفة على الفور. ولكن الضيوف لم يصدقوا قوله عن انهيار السقف وسخروا منه ورفضوا مغادرة الغرفة قائلين إن ما أحس به وَهْم. ولكنه أَلَحّ عليهم بالخروج وقال لهم: يجب أن تخرجوا أنتم أولا، وسأكون آخر من يخرج.. لأن السقف سيبقى قائما ما دمت تحته. فخرجوا جميعًا ثم خرج حضرته، وما كاد يخرج حتى انهار السقف.

كل هذه الأمور التي لم تزل تظهر منذ بدء الخلق ولن تزال تظهر، تدل على أن لهذا الكون خالقا، وتُبيِّن رعاية الله تعالى وتسخيره قُوى الكون لصالح عباده، وتكشف عن ضرورة إقامة علاقة من المحبة والعبودية مع الله تعالى، لكي ينتفع الإنسان انتفاعا كاملا من هذه المخلوقات وينجو من أخطارها.

وليكن معلوما أن المراد بالسماء هو العلو، أي كل الفضاء الذي يحيط بالأرض وتوجد فيه النجوم والكواكب، وليس كما يتوهم عامة الناس من أن السماء دائرة ملموسة. ويعني قوله ﴿والسماء بناء﴾ أن هذه السماء حماية ومنجاة، لأن البناء هو السقف، والسقف سبب من أسباب الحفظ. ومعنى ذلك أن ما في ذلك العلو من طبقات هوائية وسحب ممطرة، وأجرام سماوية كالشمس والقمر.. كلها تدخل في مقومات حياة الإنسان على الأرض.

﴿وأنتم تعلمون﴾ يعني أن حقائق الكون كلها تشير إلى الوحدة في نظام العالم، وأن كل العقلاء يعلمون هذه الحقيقة، ويعترفون بأن الكون يسير وفقا لقانون واحد يربط بين كل مكوناته. ومن ثم فمن الواجب على الجميع أن يتمسكوا بالتوحيد القائم على العلم اليقيني ولا يشركوا بالله وهم يعلمون.

وتتضمن جملة ﴿وأنتم تعلمون﴾ بيان أن الجريمة لا تُعتبر جريمة إلا إذا ارتكبت على علم تام. وهذه إحدى فضائل الإسلام العظيمة، لأنه لا يدين عاملا على عمله لمجرد صدور الفعل منه، بل إنه يراعي في حكمه الظروف والأوضاع التي تم فيها العمل، ويتحرّى مدى علم الفاعل وإدراكه للخطأ الذي ارتكبه.

والإشارة هنا إلى الأرض والسماء توجه الأنظار إلى أن حياة الإنسان تتوقف على وجود السماء والأرض، وبذلك يشير إلى أهمية النظام الروحاني ودوره الأساس في حياة الإنسان. إن هذه الحياة المادية لا تقوم ولا تكتمل إلا بما تعطيه الأرض وما تنزله السماء، وكذلك الحياة الروحية.. فإنها لا يكفي لها نور العقل ودليل الفطرة وحدها، وإنما يلزم لها مع هذا هداية السماء في كل حين. فإذا كانت الحياة الأرضية تكتمل بما يأتيها من السماء، فإن الفكر الإنساني كذلك بحاجة إلى التعاليم والهداية الإلهية من السماء، ويتوقفان جميعا على تكميل العالم الروحاني للإنسان، ولولاهما لكان هذا العالم ناقصا باطلا. فكما أن الأرض فراش للإنسان والسماء سقف له، كذلك الحال في العالم الروحاني. لا شك أن الإنسان مُزوَّد بالعقل، ولكن مَثَل العقل كمَثل العين التي لا ترى إلا بنور الشمس؛ فما لم يتلقّ العقلُ النورَ من الشمس الروحانية، أي الوحي السماوي، لا يمكن أن يعمل بصورة صحيحة كاملة. ولا شك أيضًا أن الحاجات الفطرية طاهرة جدًّا، ولكن الأهواء الدنيوية تدنسها، ولا يمكن أن تتطهر إلا بماء السماء.. ألا وهو الوحي. كذلك لا يمكن أن يحيا الإنسان حياة ناجحة إلا بعلاقة مع الله تعالى.

ألا ما أجهل أولئك الذين زعموا رغم كل هذه الأيادي الإلهية والنعم الربانية أن الله لم يخلق الإنسان، بل إن الإنسان هو الذي خلق الله! وما أعماهم! يريدون القول بأن الله تعالى ليس موجودا في الحقيقة،

وإنما اختلقه الإنسان بخياله. وللأسف الشديد أن أولئك الضالين يُدْعَوْن فلاسفة وعلماء، والحق أنهم أجهل مَن على وجه البسيطة.

وفي قوله تعالى ﴿فأخرج به من الثمرات رزقا لكم﴾ مزيد من الشرح لما سبق، وبيّن أن الأرض فيها قوة الإنماء بلا شك، ولكن هل تستطيع هي أن تعطي ثمارا بدون ماء السماء؟ فكيف يمكن لعقولكم مهما كانت من الخصب والنمو، أن تعطي ثمرة طيبة بدون معونة الله؟ إن ماء الأرض يفسد إذا انقطع عنه ماء السماء، فلا تستطيع أن تعطي ثمارا طيبة.. كذلك إذا لم تتلق العقول البشرية مددا من وحي السماء، وذلك عن طريق العبادة، فلا تستطيع أن تأتي بأفكار روحانية طاهرة. فلا تدَّعوا أن عقولكم قادرة على أن تقرر لكم مناهج الحياة.. فنحن القادرون على فعل ذلك.

وفي الآية أيضًا إشارة إلى أن الله تعالى قد ربّاكم ورفعكم من حالة أدنى إلى حالة أعلى، وتردون على هذا الصنيع بمحاولة إسقاطه تعالى من مكانته الأسمى، فتدعون له أندادا من مخلوقات حقيرة.. كأنكم بذلك تحقرونه جل وعلا! لقد جعلناكم مخلوقا لا ندّ له في الشرف بين المخلوقات، وسخرنا لخدمتكم الأرض والسماء، وأنتم تجعلون لنا شركاء.. ونحن في الحقيقة لا شريك لنا؟!

أما كيف كان موقف رسول الإسلام ﷺ من توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الأنداد.. فأضرب لكم مثالا واحدا؛ فقد قال له أحد الصحابة ذات مرة في أمر ما: ما شاء الله وشئت. فقال له ﷺ أجعلتني لله ندا؟ قل: ما شاء الله وحده (ابن كثير).

والآن أتناول البحث عن تساؤل أثاره بعض العلماء الغربيين، في ضوء الآيتين الأخيرتين، ومن أبرزهم الفيلسوفان المعروفان: هربرت سبنسر، وفريزر، وأشاعه بعدهما الدكتور روبرتصن وسمث ولورنس جوم وجرانت أيلن وغيرهم. وهؤلاء الفلاسفة فريقان: فريق يزعم بأن عقيدة وجود الله تطورت عن الاعتقاد بالجن والجنيات. ويزعم الفريق الثاني أن الإنسان الأول خاف السباع والزواحف والحيوانات المؤذية فعبدها، ثم تطور الأمر بالتدريج إلى نشأة الاعتقاد بوجود الله. ويتفق الفريقان في القول بأن عقيدة وجود الله بدأت أولا بالتعدد، أي الإيمان بوجود آلهة كثيرة، ثم حل الاعتقاد بوحدانية الله محله شيئا فشيئا. وقد بنوا مزاعمهم هذه على تاريخ الإنسان البدائي الذي يدل في رأيهم على الاعتقاد بوجود آلهة متعددة، ولذلك قالوا بأن الشرك سبق الوحدانية وجودا، وأن التوحيد ليس في الحقيقة سوى صورة متطورة عن الشرك.

وقال بعض هؤلاء خوفا من رجال الدين، بأن نظرياتهم هذه لا تمثل طعنا في الدين، بل من الممكن أن الإله العاقل قد تدرج في إظهار نفسه كما تدرج في كشف القوانين الكونية للناس. وأغلب الظن أنهم لم

يقولوا هذا بعد تفكير وتروٍّ. بل أرى أنهم ما قالوه إلا عداء للدين، أو أنهم لم يَرَوْا حاجة للتدبر في ذلك.. ولجئوا إلى مثل هذا القول تخفيفا من حدة غضب رجال الدين.

لا تقوم هذه النظريات على دليل مقنع أو على تفكير صائب، بل إن الحقيقة الناصعة التي لا شك فيها.. هي أن الأديان الهامة تؤكد على أنها نشأت بالوحي السماوي. وهكذا تنهار الفلسفة القائلة بأن الله أظهر نفسه شيئا فشيئا. إنه لَمِمّا يخالف العقل السليم أن يكون الله قد وجَّه الناس أولا إلى عبادة الأرواح الميتة، أو دَلّهم على اتخاذ الأفاعي والضواري والأحجار والأنهار أربابا من دونه.. ثم بعد ذلك كله أظهر نفسه. مع أنه لو بدأ بوحدانيته لما كان ذلك مستبعدا عند العقل. ثم إن ديانات العالم كلها تعلن بوجود الوحي منذ بداية الخلق، ولو صدق الفلاسفة في زعمهم بتأخر الوحي الإلهي لكانت كتب الديانات السماوية باطلة مفتراة.. فالهندوسية واليهودية والمسيحية والزرداشتية (المجوسية) والإسلام كلها تتمسك بعقيدة وجود الوحي الإلهي منذ البداية.

تقول التوراة بوضوح إن الإنسان تشرف بالوحي الإلهي بمجرد أن ظهر على الأرض، وتعلم منه وحدانية الخالق، والإنجيل يصدق ذلك كل التصديق. فلولا الوحي الإلهي وتعاليمه في بداية الخلق لكان قول التوراة باطلا ولا أساس له. حيث تروي ما أمر الله تعالى به آدم قائلا: "أثْمِروا واكثُروا واملئوا الأرض وأخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض" (تكوين١: ٢٨). تؤكد هذه الفقرة على أن آدم، أول الناس، قد أُخبر منذ البداية أن ما في السماوات وما في الأرض من مخلوق إلا وهو مسخر لخدمة الإنسان، فبعد هذا التعليم الإلهي كيف يمكن لآدم أن يؤمن بألوهية الشمس والقمر والحيوانات وغيرها من المخلوقات؟ كما لم يكن قبل آدم آباء حتى يعتبرهم آلهة، كما يزعمون.

كذلك الإسلام قدم نفس النظرية، وقال إن الإنسان قد تشرف بكلام الله ومعرفة وجوده، بمجرد أن خُلِق على الأرض، وسيأتي تفصيل ذلك في موضوع خلق آدم في هذه السورة. وفي وجود هذه التعليمات لا يمكن أن تجتمع دعاوى الدين وأفكار هؤلاء الفلاسفة بأي حال من الأحوال. ولا بد إذن من تكذيب الكتب السماوية أو رفض نظريات الفلاسفة.

لقد تأسست نظرية الفلاسفة عن وجود الله على أمرين هما أولا: إنكار الوحي السماوي، ثانيا: المفهوم الخاطئ للارتقاء.

أما إنكارهم للوحي فقد نجم عن حرمانهم من هذه النعمة، لأنهم تربوا في البلاد المسيحية التي لم تَحْظَ بهذه النعمة منذ أمد بعيد.. فلأنهم لم يتلقوا الوحي.. لا بأنفسهم مباشرة، ولا بواسطة غيرهم ممن تلقاه.. توهموا عدم وجود الوحي السماوي بتاتا. ودفعهم ذلك الوهم إلى البحث عن دواعٍ عقلية لوجود الله،

فأرادوا حل هذه المسألة على ضوء نظرية التطور التي كانت تسترعي أنظارهم في تلك الأيام، فوقعوا في هذه العقيدة المنحرفة عن الحق.

أما مفهوم الارتقاء الذي مفاده أن الإنسان في أول الأمر عبد آباءه أو مظاهر الطبيعة أو حيواناتها.. فهو باطل ومرفوض عقلا وتاريخًا. والحق أن مفهوم الارتقاء بالنسبة للعقل الإنساني إنما هو مقصور على أن الأمور الدقيقة انكشفت على الناس شيئًا فشيئًا، وتمّ إظهارها بحسب نشوء العقل الإنساني. ولجهل الفلاسفة بأن التخلف الحضاري لا يرتبط بالضرورة مع النشوء والابتداء.. ظنوا أن عقيدة الأمم البدائية عن وجود الله ناشئ عن عقائد الشرك الأولى التي كانوا يؤمنون بها. ولو أنهم أنعموا النظر في التاريخ لعرفوا أن الأمم المختلفة تناوبت عليها أدوار متنوعة من الحضارة، فهناك أمم كانت متحضرة ذات باع كبير في العلوم والفنون ثم باتت محرومة منها. ألم يدرسوا حضارة اليونان والفرس والعراق ومصر؟ وهل غاب عنهم تاريخ الهند والصين؟ ألم يعرفوا الاكتشافات التاريخية القديمة التي تدلهم على أن بلاد الشرق كانت في الماضي ذات حضارات عظيمة ثم تلاشت اليوم، وأن هذه البلاد كانت في سالف الأيام منابع العلوم ثم صارت اليوم مصادر الجهل؟ فإذا كانت أدوار الحضارة والمدنية تسبق أدوار الجهل والتخلف.. فلا يستبعد إذن أن يكون دور التوحيد سابقا على دور الشرك.

والشواهد على هذه الحقيقة موجودة في الأديان المعاصرة.. كالهندوسية مثلا، فإن "كشرنا" نبي الهندوس كان موحدا قبل ألفي سنة، وكان كتابه "جيتا" يتضمن عقائد التوحيد. وإذا قارنا ذلك الكتاب بعقائد الهندوس قبل اليوم بخمسمائة عام لوجدناهما على طرفي نقيض، وهذا يدل على أن التوحيد كان سابقا وأن الشرك كان تابعا.

وكذلك اليهودية والمسيحية.. تختلفان اليوم عما كانتا عليه من التوحيد كما يتبين ذلك من التوراة والإنجيل.

ثم انظروا في تاريخ الإسلام الذي هو آخر الأديان والذي تأسس بنيانه على التوحيد، والذي كان مؤسسه ﷺ حربا على كل ألوان الشرك طول حياته، ولم يغفل قط عن تنبيه صحابته إلى فخاخ الشرك حتى لحظة وفاته، ولقد حذّرهم قائلا: "لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" (صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة).. ومع ذلك نرى كيف انحرف الناس من أمته عن طريق التوحيد واتخذوا قبور الأولياء مساجد، ونسبوا إليهم ما هو من صفات الله تعالى، وتوسلوا إلى الأموات لقضاء حاجاتهم. فهل يصح لنا بالنظر إلى انحرافهم عن التوحيد إلى الشرك أن ندّعي بأن ابتداء الإسلام كان من الشرك؟ هذه الشواهد كلها تدل على أن زعم الفلاسفة بأسبقية الشرك على التوحيد ليس إلا اختلاقًا وافتراء.

وهناك دليل آخر يبطل زعمهم هذا فقدت دلت البحوث العلمية على أن أقدم القبائل في العالم اليوم تتمسك بعقائد الشرك أشد التمسك، ولكن لا يزال عندها تصور عن الإله الواحد رغم عقائدها الموغلة في الشرك، مما يدل على قِدَم عقيدة التوحيد فيها وهم لا يعبدون ذلك الإله الأكبر مع إيمانهم به.. ويعبدون آلهتهم الشعبية. ويعترف علماء المقارنة بين الأديان بوجود فكرة الإله الواحد الأكبر في قبائل استراليا وأفريقيا والمكسيك، وأنه إله غير مرئي، مقامه في السماء. وإذا نظرنا في عادات الإنسان نجد أنه دائما يميل إلى الجديد ويعمل به، ولما كانت تلك القبائل تعبد الإله المتعددة وتدعي الإله الواحد.. فذلك دليل على أن التعدد هو العقيدة الجديدة التي يأخذون بها، وينسون معها التوحيد لأنه العقيدة القديمة.. وذلك جريا على عادة البشر من هجران القديم والاتجاه إلى الجديد المبتكر.

ومن الدلائل أيضًا على وجود الاعتقاد بين القبائل المتوحشة بإله واحد غير مرئي خالق للكل أن سكان "المكسيك"، وهم من أقدم الشعوب.. يعتقدون بإله واحد اسمه "إيوانا ويلونا" خالق كل الأكوان، المحيط بها، أبو الآباء. في بدء الخليقة.. عندما لم يكن شيء و لم يوجد كائن.. فكر "ويلونا"، وعن فكره نشأت قوة النمو، فتحولت تلك القوة المتزايدة إلى صورة فضاء واسع، ومنها تجلى نور الإله، ثم أخذ الفضاء يتقلص فنشأ منه الشمس والقمر. وما أشبه هذه الأفكار بمعتقدات الأديان الحاضرة عن خلق هذا الكون.

وهناك بعض القبائل الأفريقية البدائية الموغلة في التوحش، ولديها اعتقاد مماثل بإله واحد يسمى "نينكُو". ووجدت على آثار بابل وهي من أقدم مراكز الحضارة الإنسانية عبارات التضرع إلى الإله الواحد.. وهاك ترجمتها:

"يا أيها الملك الأزلي الأبدي، مالك جميع المخلوقات؛ أنت خالقي. يا أيها الملك، ليكن حسب رحمتك، يا مولانا أنت ترحم الجميع. لتكن مملكتك الواسعة ذات رحمة. اغرس في قلبي حب عبادة ألوهيتك، وهب لي كل ما ترضى، لأنك أنت الذي صيرت حياتي بهذه الصورة". ولكن بعد ذلك الدور التوحيدي تحولت بابل إلى مركز للعقيدة الشركية.

وكذلك كانت قبائل كندا وأستراليا البدائية تعتقد بإله واحد يدعى هنا وهناك بأسماء مختلفة.

ويتبين مما سبق من الشواهد الدينية والتاريخية أن عقيدة التوحيد كانت سابقة في الوجود على عقائد الشرك.

وأريد هنا أن أكشف الغطاء عن خطأ آخر.. أوقع هؤلاء الفلاسفة في ظنهم الباطل هذا، وهو أنهم لما قرءوا في التوراة وغيرها من الكتب عن إله قبيلة كذا وإله شعب كذا، استدلوا بهذه الكلمات على أن فكرة الآلهة المتعددة هي الأصل الذي تطورت عنه عقيدة الإله الواحد، وقد وقع الفلاسفة في هذا الخطأ

لأنهم لم ينتبهوا إلى أن الديانات السابقة على الإسلام كانت غير عالمية، أي أن كل دين كان يخص قوما بعينهم أو قبيلة بذاتها. وهكذا كان أتباع هذه الديانات يحسبون أن الإله الواحد إلههم وحدهم دون غيرهم. وهذه الرسالات وإن كانت سماوية صادرة عن إله واحد، إلا أن اختلاف أحوال القبائل والأمم اقتضى أن تكون هناك اختلافات في تفاصيل الديانات. وقد نشأ عن تلك الاختلافات ذلك الظن الخاطئ لدى من يجهل هذه الحقيقة بأن لكل دين منها إلها خاصا به.

والحقيقة أن الإله الذي شرف البشرية بالرسالات السماوية إله واحد، أعطى كل شعب طبق حاجته. وقد أبان القرآن الكريم وجه الحقيقة في هذه القضية قائلا: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:٢٥).

ومما يثير العجب أن الذين يظنون بأن الاعتقاد بالإله الواحد "يهوه" إله بني إسرائيل قد ظهر فيهم بعد موسى.. لم يروا بأن إبراهيم سبق موسى بزمن طويل، وكان من ذريته قوم يسكنون مكة، وكانت عقيدتهم تخالف عقيدة اليهود.. إذ إنهم أسرفوا في الشرك، وجمعوا في الكعبة عددا كبيرا من الأصنام، وكانوا بعيدين عن عوامل الحضارات الخارجية بعدًا تامًا.. ثم جاء نبي الإسلام محمد ﷺ ونادى في قومه الذين عادوه أشد العداء.. بأن جدهم إبراهيم كان موحدا ولم يكن من المشركين. يقول القرآن المجيد عنه: ﴿... بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة:١٣٦).

ورغم الخلاف الشديد بين النبي ﷺ وبين قومه من أحفاد إبراهيم لم ينكروا عليه أبدا هذا القول، ولم يدَّعِ أحد منهم بأن إبراهيم لم يكن موحدا. وفي هذا دلالة واضحة على أن مشركي مكة كانوا يعترفون بأن إبراهيم كان موحدا، وأن عامة العرب كانوا يعتقدون بأن إبراهيم عليه السلام لم يكن من المشركين. ومن ثم فإن التقاليد العريقة لأبناء إبراهيم من قبل موسى تقوم على عقيدة الإيمان بإله واحد. والزعم بأن عقيدة التوحيد لم تكن في بني إسرائيل إلا بعد موسى زعم باطل، لأن بني إسرائيل هم مِن ذرية إبراهيم ويعتزون بكونه جدهم الأكبر، وإبراهيم هو حامل لواء التوحيد في قومه وبنيه.

وخلاصة القول إن الآية الكريمة التي تدعو إلى التوحيد وتنهى عن الشرك لا تقدم حلقة ارتقائية متطورة من حلقات عقائد الشرك، بل إنها توطد أركان عقيدة راسخة عريقة في تاريخ الإنسان.. قد ضلت عنها الأمم بعض الوقت.. وانحرفت عنها الجماعات البشرية فوقعت في الشرك.

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

نزَّلنا: نزَّل الشيءَ: صيّره نازلا. ونزَّل القومَ: أنزلهم المنازل. نزَّل الشيءَ: رتَّبه. نزَّل العير: قدَّر لها المنازل. فالتنزيل يكون تدريجيا مرة بعد مرة. والإنزال أعم منه (الأقرب). والفرق بين الإنزال والتنزيل أن هذا يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مُفرَّقا ومرة بعد أخرى، والإنزال عام (المفردات).

عبْدنا: يُقال عبد له: تأَلَّه له. عَبَدَ الله أي أطاع له وخضع وذل وخدمه والتزم شرائع دينه ووحَّده (الأقرب). والعبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى. والعبادة ضربان: عبادة بالتسخير وعبادة بالاختيار. والعبد يقال على أربعة أضرب: الأول عبْد بحكم الشرع، وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتياعه، والثاني عبْد بالإيجاد.. وذلك ليس إلا لله تعالى، والثالث عبْد بالعبادة والخدمة، والناس في هذا ضربان: عبْد لله مخلص وجمعه عباد، وعبْد للدنيا، وهذا الرابع (المفردات).

قال بعض أئمة الاشتقاق: أصل العبودية الذل والخضوع. وقال آخرون: العبودية الرضا بما يفعل الرب، والعبادة فعل ما يرضيه الرب. والأول أقوى (التاج).

العابد: الموَحِّد. والتعبيدة: العبودية. ويُقال: ما عبدك عني: ما حَبَسَك. عبد به: إذا لزِمه و لم يفارقه. قال ابن الأنباري: فلان عابد؛ هو الخاضع لربه، المستسلم المنقاد لأمره، والمتعبد المنفرد بالعبادة (التاج). فمعنى العبد أن يصير الإنسان في غاية التواضع والتذلل والخضوع والتوحيد والخدمة وعدم المفارقة لله وفي غاية الانقطاع عن الدنيا إلى الله.

شهداء: جمع شهيد. والشهادة والشهود: الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو البصيرة. والشهادة قول صادر عن علم حاصل بمشاهدة بصيرة أو بصر، وقد يقال للحضور مفردا. وقد يعبر بالشهادة عن الحكم والإقرار. وشهده: اطّلع عليه وعاينه. شهد على الأمر: أخبر به خبرا قاطعا. والشهيد: الشاهد؛ الأمين في شهادته؛ الذي لا يغيب عن عمله شيء "الأقرب". قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿ادعوا شهداءكم﴾ معناه أعوانكم. وقال مجاهد: الذين يشهدون لكم. وقال بعضهم: الذين يُعتدّ بحضورهم. فمعنى ﴿ادعوا شهداءكم﴾، "١" ادعوا أعوانكم وأصدقاءكم، "٢" ادعوا شهداءكم الذين يشهدون لكم، "٣" ادعوا آلهتكم.

التفسير: جاء أول أمر سماوي في القرآن الكريم في الآيتين السابقتين. يتضمن عبادة الله تعالى وتجنب اتخاذ أندادٍ له. وتشير هذه الآية إلى نتيجة طبيعية تترتب على أول أمر قرآني، تلك هي قول الكفار: إن هذا الكلام لم يكن جديرا بأن نرضى به، لأنه قد دمر حياتنا الآمنة، وأورثنا الحرمان من اليقين الذي كنا نتمتع به، وفتح علينا أبواب الشكوك والشبهات. وكلمة ﴿مِّمَّا﴾ في قوله تعالى ﴿وإن كنتم في ريب مِّمَّا نزلنا﴾ تدل على أن الريب الذي قد سبق ذكره، إنما نشأ عند المعترضين بسبب القرآن الكريم، الذي حسب زعمهم قد جعل حياتهم قلقة. وقوله: ﴿إن كنتم في ريب﴾ ليس تصديقا لمزاعمهم بأن القرآن يسبب الشك لديهم إنما هو تكذيب لها، وقال: إن كنتم صادقين فيما تزعمون، فعليكم أن تأتوا بسورة مثله، وإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فادعاؤكم هذا أيضًا باطل، لأن الإتيان بمثل الكلام المريب أسهل ما يكون. ومثاله في كلام العرب قولهم: إن كنتَ عبدي فأَطِعْني. يقال لمن يدَّعي كذبا أنه عبد له فيرد عليه بذلك، أي إن كنت صادقا فيما تدّعي فأطعني، وإلا فأنت كاذب.

إن مطالبة القرآن واسعة، ولا تقتصر على الجمال اللغوي وحده، بل الحق أنه لم يرد هناك أي ذكر للغة، وإنما يستنبط ذلك فقط من قوله تعالى ﴿لا ريب فيه﴾ فضلا عن المعاني الأخرى الكثيرة. إذ ليس من الصواب الاقتصار على معنى واحد لقوله: ﴿لا ريب فيه﴾ وترك ما يتضمنه من معانٍ أخرى. كما ليس من الصواب الأخذ بقوله ﴿لا ريب فيه﴾ وترك مطالب بأخرى تشير إليها الآية.

والاعتراضات على القرآن الكريم كانت وما تزال تجري على ألسنة الكفار، ولا يبرح الكُتّاب المسيحيون يسوقون الاعتراضات على القرآن المجيد، ولكنهم إلى اليوم لم يجرءوا على قبول تحدي القرآن بالإتيان بمثله. إنهم يدّعون بأفواههم أن القرآن، وحاشا له، قد اقتبس من الإنجيل كذا وكذا، وأخذ من التوراة كذا وكذا، واستعار من كتب المجوس كذا وكذا.. وإذا كان الأمر بزعمهم كذلك.. فما الذي يمنعهم من الأخذ والاقتباس والاستعارة ليجمعوا ويؤلفوا كتابا جامعا مثل القرآن؟ إن اعتراضهم هذا هو كقول من يزعم بأن العسل ليس له فضل أو مزية، لأن النحل امتص من الأزهار والأثمار رحيقها وأخذ حلاوتها ورائحتها العذبة.. ولكن هل يمكن لهذا المعترض أن يقدم عسلا مثله، وأنّى له ذلك؟ ها هي الأزهار والأثمار أمامه فهل بوسعه أن يمتص منها ويخرج لنا شهدًا حلوا مغذيا شافيا؟ والقرآن الكريم يهدم اعتراضهم ويقول بأنه لا يحتوي على كل الحقائق الموجودة في الكتب السابقة فحسب، بل إنه جامع لحقائق لم تكن معلومة من قبل أيضًا، فيقول:

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (البينة:٤).

﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥٢)

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٠)

فالقرآن يعترف بأنه يتضمن التعاليم المفيدة التي كانت موجودة في الكتب الأولى، ويؤكد أن به أيضًا تعاليم بديعة أخرى. والطعن في القرآن بعرض بعض المتشابهات يخالف الأمانة، لأن الذي يزعم بأن القرآن يحتوي على مقتبسات أو سرقات فقط فليؤلف كتابا مثل القرآن ويجمع فيه ما شاء من السرقات، ثم لينظر مصير كتابه بإزاء القرآن الحكيم. إن أي كتاب ملفق لن يبلغ جزءا من الملايين من معارف القرآن.

وعلاقة هذه الآية بما قبلها أنها استهلت بقوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾، وبعدئذ لما دُعيَ الناس قاطبة إلى عبادة الله الواحد، ثارت ثائرة الأعداء، وقالوا: كيف توجهون إلينا هذه الدعوة وقد ادّعيتم بأنه لا ريب في هذا الكتاب، بينما الريب كل الريب فيما قدمتم في أول هذا الكتاب من التوحيد الذي يفتح أبواب الشكوك على مصارعها وهو باطل عندنا كل البطلان، لذلك إن أوْكدَ وأوْثقَ ما تقولونه لا يسمو عن الارتياب، فإلى أي خير في دينكم تدعوننا، وبأي طمأنينة تدّعون؟ فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله﴾.

ويتبين مما سبق من الشرح، أن التحدي هنا يتضمن المطالبة بالإتيان بسورة تبلغ مدى ما تشتمل عليه الآيات السابقة في أول سورة البقرة من المعاني، وليس المراد بذلك أن سائر سور القرآن عدا هذه الآيات يمكن الإتيان بنظيره، وإنما هذه الحجة على سبيل الإلزام، ومعناها أن عجزكم عن الإتيان بنظير ما في القرآن كله من معانٍ وتعاليم لبيّن ومُستبعَد كل الاستبعاد، فلكم أن تأتوا بمثل ما في بضع آيات سابقة من مضامين، لأنها هي التي أثارت اعتراضكم.

والآن نرى ما في الآيات السابقة على هذا الاعتراض من معان. ففي الآية الأولى ورد قوله تعالى ﴿لا ريب فيه﴾، وبسببه قال الكفار إن القرآن يثير الشك لديهم. هذه الآية تشتمل على المعاني التالية:

١- ﴿ذلك الكتاب﴾ أي:

أ- هذا هو الكتب الموعود الذي أخبر الأنبياء السابقون عنه أنكم تعطون كتابا كاملا، وهذا الكتاب يحقق أنباءهم هذه.

ب- هذا هو الكتاب الكامل الذي يحتوي على كل أمر هام لتكميل الروحانية.

ج- هذا هو الكتاب الذي جاء استجابة لدعاء عُلِّمتموه في سورة الفاتحة ﴿اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم﴾.. أي صراط المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

٢- ﴿لا ريب فيه﴾ أي:

أ- لم يرد فيه أمر يثير القلق والاضطراب حقا، بل يقدم على صحة كل دعوى دلائل وبراهين، ويسدّ باب كل سوء ويفتح باب كل خير ببيان أسباب هذا وذاك.

ب- لم يرد فيه شيءٌ يُعَدُّ تهمة في حق الله جل وعلا، أو في حق أحد من الأبرار المقربين، أو في حق كتاب سماوي حق.

ج- لا يعوزه أمر مما لا بد منه للكمال في الروحانيات.

د- لا يتضمن تعليما يوقع الإنسان في المشقة أو الهلاك.

٣ــ ﴿هدى للمتقين﴾ أي أنه لا يقتصر على مطالبة الإنسان بالأعمال الحسنة فحسب، بل يَعِد كلّ من يتبع تعاليمه بإيصاله إلى مقام الوصال والقرب منه سبحانه، ويطلعه على مشيئته تعالى.

٤ــ وكل من يرفضه من عنادٍ يعاقبه الله تعالى بعذاب أليم.

٥- والذين لا يقوم إيمانهم به على الإخلاص الصادق، سواء من ناحية العقيدة أو العمل، فأولئك لهم أيضًا عذاب أليم.

٦- إنه يقدم تعليما صادقا مدعما بالبراهين عن الله تعالى.

هذه هي مضامين الآيات السابقة للآية التي نحن بصدد تفسيرها، ولا يتحقق الإتيان بمثلها إلا إذا أتَوْا بسورة تتضمن كل هذه المضامين. والظاهر أن الإتيان بمثلها خارج عن نطاق قدرة البشر، ولا يكون مثلها إلا في كتاب نزل من عند الله تعالى. وبناء على هذه الدعوى تحداهم وقال: ﴿وادعوا شهداءكم﴾ أي استعينوا بآلهتكم ليلهموكم كتابا مثله.. كما فتح هذا القرآن باب الإلهام لمتبعيه.

هذا هو ما تطالب به هذه الآية، على أن يكون كل ذلك في أسلوب جميل بليغ، لأن اللغة الركيكة لا تفصح عن المعاني بل تحدث الشك. فعندما قال القرآن إنه ﴿لا ريب فيه﴾ فكأنه ادعى الفصاحة والبلاغة. ولكن من الخطأ الظن بأن المطلوب هو الإتيان بكلام مماثل للقرآن في الفصاحة فحسب، لأن هذا بمثابة تقديم قطرة من البحر لا غير.

وجملة القول إن القرآن الحكيم ردَّ ردًّا مفحما على المعترضين بأن القرآن مثير للريب فيما قدّمه من دين، وفيمن هو صاحب هذا الدين، وتحداهم بحيث ألقمهم حجرا لم ولن يسيغه أحد. أما الاعتراضات فما زالت مستمرة، ولن تزال كذلك ما دام هناك قلوب فارغة من التقوى. ولكن إذا تقدم أحد لقبول ذلك التحدي وهو خال من التعصب.. فلن يجد بُدًّا من الإقرار بعجزه، وصدق الله العظيم: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة، أعدت للكافرين﴾.

إن مسألة سمو القرآن وتحدي العالم بالإتيان بنظيره.. عالجها القرآن في خمسة مواضع، وأرى أن مفهوم التحدي في كل موضع منها يختلف عن غيره:

١. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ.. ﴾، وهي آيتنا الحالية.

٢. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس:٣٩).

٣. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود:١٤).

٤. ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء:٨٩).

٥. ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور:٣٤-٣٥).

ويلاحَظ أن التحدي في الموضعين الأول والثاني من نوع واحد، أما تحديات المواضع الأخرى الثلاثة فكل منها له معنى خاص به. ففي سورة الإسراء كان التحدي بالإتيان بمثل القرآن كله، والتحدي في سورة هود بالإتيان بعشر سور، بينما كان التحدي في سورة الطور على إطلاق.. ولو كان بالإتيان ببعض سورة. فما السبب في هذا الاختلاف؟

قيل إن الاختلاف سببه التنـــزل بهم في التحدي حتى ينكشف لهم عجزهم التام، فطالبهم أولا بمثل القرآن كله، وعندما عجزوا طالبهم بعشر سور مثله، فلما عجزوا طالبهم بسورة، وحينما عجزوا أيضًا طالبهم بحديث من القرآن. وعندي أن هذا التعليل لا يخلو من اضطراب وضعف، لأن ترتيب النزول القرآني يخالف ذلك؛ حيث كان الترتيب كالآتي: سورة الطور، ثم سورة الإسراء ثم سورة هود، ثم سورة يونس وكانت أخيرًا سورة البقرة.

فليس من السائغ نظرا لترتيب نزول السور أن يكون التحدي أولا ببعض آي القرآن فإذا عجزوا يرفع التحدي إلى القرآن كله، فلما عجزوا يخفض إلى عشر سور ثم سورة واحدة.

وقبل أن أتناول بالبحث كل تحدٍّ منها على حدة.. أود أن ألفت الأنظار إلى أن كل تحدٍّ منها جاء مقرونا بذكر المال والثروة والقوة.. ما عدا الوارد في سورة البقرة؛ لأنه صورة مماثلة للتحدي الوارد في سورة يونس أعاده الله تعالى في سورة البقرة. حيث يقول الله تعالى قبل التحدي: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ*﴾ (يونس:٣٢، ٣٥، ٣٦).

وكذلك جاء في سورة الطور بعد إيراد التحدي: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ *﴾ (الطور:٣٦، ٣٧،٣٨)

وجاء في سورة هود: ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ (هود:١٣).

وفي سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ (الإسراء:٩١ إلى ٩٣).

ومن ذلك يتبين أن هناك علاقة عميقة بين التحدي المُطالَب بمثل القرآن وبين الكنوز والخزائن. فالقرآن المجيد أيضًا كنز من كنوز الله وخزائنه. والقرآن يرد على من يطالبون بالكنوز أنهم يطالبون الرسول ﷺ بما هو فعلا بين يديه.. فمعه أعظم الكنوز وأسماها. ويرد على من يطالبون بالملائكة فيقول إن الملائكة لا تتنزل لمسابقات مادية، وإنما تتنزل بالوحي القرآني، وقد نزلت بالفعل على الرسول الكريم ومعها كلام الله تعالى. فالمنكرون يطالبون الرسول بما قد حصل من قبل. وإذا أعماهم التعصب فأنكروا كون القرآن كنـــزا، أو تنـــزل الملائكة معه من عند الله تعالى.. فليأتوا بمثله. وهكذا يقوم القرآن الكريم نفسه ككتاب منقطع النظير.. يصدق نفسه بنفسه، ويقدم أدلة نزوله من عند الله تعالى بما فيه من الآيات والسور التي يعجز الجميع عن الإتيان بمثيل لها.

ولنلق نظرة بعد ذلك على كل آية يتحدى فيها القرآن المنكرين ليأتوا بمثله، لنفهم الحكمة من كل تحدٍّ، ومناسبته للمقام.

جاء التحدي الأكبر في سورة الإسراء يطالب بالإتيان بمثل القرآن كله.. وليس شرطا أن يكون الكلام المثيل معزوًا إلى الله، بل يجوز لهم أن يأتوا بأي كلام يريدون، ومن أي مصدر يشاءون. ولكن الشرط الوارد في الآية أن يكون مثل القرآن أو أفضل منه. والمماثلة أمر هام، بيَّنها القرآن الكريم في السورة ذاتها حيث قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾(الإسراء:٩٠). هذا هو الأمر الجامع الذي طلب الإتيان بمثله، فإذا كان المنكرون يرون القرآن من كلام البشر فعليهم أن يقدموا كلاما مساويا له في الفضائل التالية:

١. أن يكون الكلام هداية كاملة في أمور الدين، مستوعبا جميع ضرورياته من العقائد وفلسفاتها، وصفات الله تعالى وحكمة ظهورها، وعلم الكلام، والعبادات وفلسفتها، وعلم الأخلاق ومبادئها الفلسفية، والمعاملات وأسسها الحكيمة، وما يتصل بالدين من أمور الحضارة والمدنية والسياسة والاقتصاد، وحقيقة الحياة الآخرة وما يتعلق بها.. وغيرها من الأمور الحيوية الضرورية.

٢. أن يتناول الأمور السالفة الذكر من كل نواحيها سعةً وعمقًا، ومرشدًا إلى الخير في كل مسألة دينية بكل جوانبها الدقيقة.

٣. أن تكون كل عناصرها مع سعتها ودقتها لا تقدم إلا النافع الخالي من الضرر.

٤. أن يكون الكلام عاما.. لا يخص شعبا بعينه، ولا يراعي مصلحة فئة خاصة، وإنما ينظر إلى جميع بني الإنسان، ملائما للفطرة البشرية جمعاء، ويصلح لكل الطبائع الإنسانية، ويوافق كل الأوضاع والظروف، ويناسب كل مستوى من الأفهام.

ولعل في هذا التحدي ردا على من يزعمون معرفة الأمور الغيبية ممن يُسَمَّون الروحانيين (Spiritualists)، فينبههم القرآن إلى أن الإتيان بمثل علوم القرآن مستحيل على الإنسان.. سواء أحاول هو نفسه أو بمعونة الأرواح التي يدعون الاتصال بها.

والآية التالية التي ترد على الكفار اعتراضهم بأن الرسول ﷺ لا يملك كترا وليس معه ملك، تقول: ﴿فأتوا بعشر سور من مثله مفتريات﴾. فلما كان الاعتراض موجها إلى بعض الأمور التي جاء بها القرآن من أنه كتر من عند الله نزلت به الملائكة.. لذلك جاء الرد يتحدى بالإتيان بمثل جزء من القرآن وليس القرآن كله، فعلى المنكرين المعترضين أن يأتوا بعشر سور فقط تماثل عشر سور من القرآن الكريم.. وليزعموا أنها من عند الله تعالى وجاءت بها الملائكة.. ثم لينتظروا ما يكون مصيرهم بعد هذا الافتراء. وقد استعمل عدد العشرة لأنه عدد تام.

ولقد تضمنت سورة الإسراء القول بكمال القرآن الحكيم من كافة الوجوه.. ولذلك كان التحدي فيها بمثل القرآن كله. أما هنا فكان الاعتراض على بعض القرآن لا على كله، ولذلك كان التحدي بعشر سور طويلة أو قصيرة دونما تحديد.. والفرصة أمامهم متكررة عشر مرات.

وفي الموضع الثالث أعلن القرآن أنه لا نظير له أبدا، وتحداهم أن يأتوا بمثل سورة واحدة من القرآن. والتحدي هنا دليل من أدلة القرآن.. وليس ردا على الكفار، وقد جاء قبل هذه الآية أن القدرة على التصرف المطلق لله وحده، والدليل على ذلك هو القرآن الحكيم نفسه. وأورد الله تعالى خمسة تحديات قائلا: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ٣٨).

فهو أوّلا يحتوي على تعليم لا يمكن أن يؤتى بنظيره، وهو ثانيا يصدق الكتب السماوية السابقة، وهو ثالثا يكمل الأحكام الناقصة فيما سبق من كتب، وهو رابعا مصون عن كل عبث أو تصرف إنساني، وهو خامسا تعليم عام من رب العالمين لجميع بني النوع الإنساني ولجميع الأزمان.

وعقَّب على ذلك بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس:٣٩).

فإذا لم يكن كل ما ذكرناه عن القرآن حقا وصدقا فأتوا بسورة مثله تتصف بتلك الصفات الخمس. أما وأنكم لن تستطيعوا الإتيان بسورة واحدة فأنّى لكم أن تأتوا بكتاب مثل القرآن في فضائله التي لا تحصى. فالمثلية هنا يراد بها فضائله.

والتحدي الرابع ﴿فليأتوا بحديث مثله..﴾ ويراد به ما جاء في أول السورة: ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * ﴾ (الطور:٢ إلى ٩).

وهذا إعلان مؤكد بأن القرآن هو الكتاب الموعود به على جبل الطور، وهو الذي لن يزال مكتوبا ومنشورا في الدنيا، مقروءًا على الدوام ودون انقطاع، وأن الإسلام سيزداد أهله جدًّا، وسيدخل فيه ذوو الفضائل الروحانية والجسمانية العالية، فضلا عن عامة الناس. نقدّم هين الأمرين: الإسلامَ وهذه العين الدفّاقة التي ستروي مختلف البلاد في العالم كدليل على يوم القيامة. ثم يُعقِب الله تعالى بقوله: ﴿أم يقولون افتراه﴾ ؟! فإن كان كذلك، فعليهم أن يأتوا بحديث يتضمن مثل هذه الأنباء المتنوعة. ولا يشترط عليهم أن يكون الحديث مفترى على الله أيضًا، بل لهم أن يستخرجوا ذلك المثل من الكتب السابقة. ولكن ليعلموا يقينا أنهم لن يمكنهم أن يأتوا بنظيره.

أما التحدي الخامس فهو الوارد في آيتنا من سورة البقرة وقد سبق بيانه.

وقد تبين وتحقق مما أوضحناه أن هذه التحديات الخمسة.. هي خمس مطالبات منفصلة، كل منها على حدة، وكل واحدة منها ثابتة متحققة، لا تنسخ إحداها الأخرى. ومما أوقع المفسرين في الخطأ زعمهم بأن كل تحدٍّ من هذه التحديات هو الإتيان بمثل القرآن في الفصاحة فقط، مع أن الأمر على عكس ذلك. إن التحدي في هذه السور الخمس ليس واحدا، بل إنها تحديات مختلفة منفصلة. وجاء في كل تحدٍّ منها طَلَبُ الإتيان بمثل القرآن كله أو بعضه طبق الظروف والأحوال.

ولا يحسبن أحد أن التحدي مقصور على الإتيان بمثل السور التي جاء بها التحدي، لأن الموضوع في مفتتح سورة البقرة يعُمّ جميع سور الكتاب دون استثناء. ولذلك فكل سور القرآن خالية الريْب، وكلها هدى للمتقين.. فإن أتى أحد بمثل سورة ما من سور القرآن.. طبق الشروط المذكورة في أول سورة البقرة والموجودة في جميع السور.. فإنه بذلك يكون محقا في تكذيب القرآن المجيد. وهيهات هيهات لما يحلمون!

وقوله ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا﴾ في رأي بعض المفسرين يشير إلى أن الكفار ارتابوا في هذا الكتاب بسبب تنـــزيله شيئا فشيئا ومرة بعد أخرى. لأن لفظ ﴿نزلنا﴾ يقتضي ذلك، وجرت العادة أن يكون المؤلف أقدر على تأليف كتابه إذا كان على أقساط متقطعة. فردّ عليهم بقوله: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ أي بقطعة منه.

والاستدلال، وإن بدا معقولا، إلا أنه لا يستقيم مع قواعد اللغة العربية. ذلك لأن صيغة التفعيل وإن دلت على التكرار والكثرة إلا أن ذلك ليس مطّردا في كل موضع، بل يفيد ذلك في الأفعال التي مجردها متعدٍّ مثل قَطَعَ، فإن قطَّع تعني جَعَلَه قِطَعًا كثيرة، وكذلك ضَرَبَ وضَرَّب، وذَبَح وذبَّح. ولكن التفعيل يفيد أيضًا التعدية إذا كان المجرد لازما مثل: وضُح الأمر ووضَّحه أي جعله واضحا. فالفعل نزَّل هو صيغة المتعدي من الفعل نَزَل، ولا تعني التكرار والتدرج. والقاعدة المبدئية في اللغة العربية أن زيادة اللفظ تدل على زيادة المعنى، والزيادة هنا حولت الفعل من لازم إلى متعدٍّ، وحققت غايتها.

ومما يدل على أن ﴿نزل﴾ لا تعني التكرار أن الكفار لما اعترضوا على تكرار النزول عبَّر القرآن عن ذلك بقوله:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾(الفرقان:٣٣). فكلمة ﴿نُزِّل﴾ بمعنى إنزال القرآن كله مرة واحدة ولا تعني التدرج. وإذن فالاعتراض والريب ليس بسبب نزول القرآن جزءا جزءا، وإنما اعتراضهم على عقيدة التوحيد التي ذُكرت في الآية السابقة، وهي التي أثارت شكوكهم.

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

الحجارة: جمع حجر. الحجر: الجوهر الصلب (المفردات). الحجران هما الذهب والفضة (الأقرب).

أعدت: أعده للأمر: هيّأه وأحضره (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى في هذه الآية إنكم إذا لم تستطيعوا أن تعارضوا تحدي القرآن بمثله، وإنكم لن تستطيعوا ذلك أبدا.. فعليكم أن تستيقنوا بأنه كلام الله، وأنكم لا تبارزون الإنسان، بل إنما تبارزون الله تعالى.. وعليكم أن تستعدوا للقاء ذلك العقاب الذي لا يلقاه إلا المعارضون للحقائق السماوية.

وقوله ﴿لن تفعلوا﴾ قد يراد به مجرد المستقبل أيضًا أي لن تستعدوا لذلك.. لأن الكفار وإن كانوا يشركون بالله بعض الآلهة الأخرى، غير أنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أن آلهتهم تلك لا تستطيع إنزال وحي، ولن تقدر عليه أبدا.. كما سبق من قوم إبراهيم عليه السلام.. عندما اضطروا للرد عليه بقولهم: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾ (الأنبياء:٦٦).

وإن في قوله تعالى ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ تجوُّز واستعارة لبيان أن العلاقة بين الناس والحجارة، أي الوثنية، ستكون سببا لإيقاد النار للكافرين.

وقد فسر مؤسس الجماعة عليه السلام ﴿الناس والحجارة﴾ بنوعين من أهل النار: نوع يضمر في قلوبهم شيئا من حب الله تعالى، وعبر عنهم بلفظ ﴿الناس﴾، ونوع آخر منهم شُبهوا بالحجارة لأن قلوبهم خلت من حب الله تعالى لجمودها، فهي كالحجارة الصلبة التي ليس فيها لين ولا رأفة ولا شفقة.

وهذا المعنى على درجة كبيرة من الدقة واللطافة، ويصدقه القرآن الكريم حيث يقول عن اليهود: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (البقرة: ٧٥).

ولقد أطلق القرآن المجيد على الكفار من ناحية شرهم اسمين: الجن والإنس، ومن ناحية مؤاخذتهم على الشر سماهما الحجارة والناس، كما جاء في قوله: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وما ورد على لسان أهل النار: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾(فصلت: ٣٠)

وقد سمي الصنف الأول جنًّا، لأن مادة ﴿جن﴾ تعني الخفاء، وهم أهل الشر الذين يضلون الناس من حيث لا يدرون. ولو أنهم نشروا الشر بطريق بيِّن لما اغتر الناس بوساوسهم، ولكنهم يلجئون إلى دسائسهم السرية، ولذلك سماهم بالجن. أما عقابهم الشديد فقد دلَّ عليه بالإشارة إلى قسوة قلوبهم.. كي تتلاءم شدة العقاب وقسوة القلب، ولذلك سماهم من ناحية عقابهم الشديد بالحجارة.

ولا يعزبن عن البال أن الحياة الآخرة ليست مادية محضة وأن العبارات الواردة في القرآن المجيد بشأن الثواب والعقاب الأخروي لا تُحمل على معناها الحرفي، وإنما هي بلسان التمثيل لتقريب الصور من فهم الإنسان إلى حد ما.

وقوله ﴿أعدت للكافرين﴾ إشارة إلى أن عذاب الله لا يترل إلا بالإنكار والعناد، وإلا فإن الله تعالى قد خلق الإنسان للنجاة. وكذلك تبطل هذه الآية الكريمة ظن الذين يزعمون أن كل إنسان مؤمنا كان أو كافرا.. لا بد من أن يتذوق قليلا أو كثيرا من عذاب النار.

ولنعلم أن العقاب في التعاليم القرآنية ليس بدائم، وليست غايته الانتقام والإيذاء دون مبرر، بل إنه يهدف إلى تطهير الإنسان لكي يصلح للتقرب إلى الله تعالى. وما جهنم إلا كدار للاستشفاء والعلاج من آثار الأمراض الروحية.

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥

شرح الكلمات:

بشّر: البَشَرة: ظاهرُ الجلد. وبَشَّرتُه: أي أخبرته بخبر سارٍّ بَسَطَ بَشَرَة وجهه، وذلك أن النفس إذا سُرَّت انتشر الدم فيها انتشارَ الماءِ في الشجر. وأما قوله ﴿فبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ فاستعارةُ ذلك تنبيهٌ أنَّ أسَرَّ ما يسمعونه الخبرُ بما ينالهم من العذاب (المفردات). البشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير، ولا تكون بالشر إلا إذا كانت مقيدة كقوله ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران). والتبشير يكون بالخير والشر، وقد يكون هذا على قولهم: تحيتك الضرب وعتابك السيف. والتبشير في اللغة مختص بالخبر الذي يفيد السرور؛ إلا أنه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذي يؤثر في البشرة تغيُّرا، وهذا يكون للحزن أيضًا، فوجب أن يكون لفظ التبشير حقيقة في القسمين (التاج).

الصالحات: صلح ضد فسد، أو زال عنه الفساد. هذا يصلح لك: أي يناسبك، فالصالحات الأفعال الطيبة؛ أعمال لا فساد فيها وملائمة ومفيدة. وصالَحَه: وافقه. الصالح ضد الفاسد. والصلاحية حالة يكون بها الشيء صالحا (الأقرب).

جنات: أصل الجَنّ ستر الشيء، يقال: جنَّه الليل: ستره، والجنة كل بستان ذي شجر يستر بأشجار الأرض. وقد تسمى الأشجار الساترة جنة. وسميت الجنة إما تشبيها بالجنة في الأرض وإن كان بينهما بون، وإما لِستْرها نِعَمَها عنّا المشارَ إليها بقوله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ (المفردات).

الأنهار: واحدها النهر، وهو مجرى الماء الفائض. وجعل الله تعالى ذلك مثلا لما يدرّ من فيضه وفضله في الجنة على الناس، قال: ﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾. والنهر: السعة تشبيها بنهر الماء. ونَهْرٌ نَهِر: كثير الماء (المفردات).

أزواج: الزوج كل واحد معه آخر من جنسه (الأقرب). وتخطئ العامة فتظن أن الزوج اثنان، والحقيقة أن الزوج واحد من اثنين. فيقال: زوجان من حمام وزوجان من نعال. وورد في القرآن ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾.

فالمراد من الزوجين في قوله تعالى ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾ أن لهم رفقاء من جنسهم يحققون معهم كل نوع من الازدهار والراحة.

والقرآن يقرر أن الله تعالى ليس بحاجة إلى زوج، أما كل شيء آخر فهو بحاجة إلى زوج. وبناء على هذا فإن الجميع يكونون بحاجة إلى زوج سواء كانوا رجالا ونساء. أما نوعية هذا الزوج فلا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى، وسوف ينكشف للإنسان عندما يدخل الجنة.

مطهرة: طهُر ضد نجُس. طهَّره جعله طاهرًا (الأقرب). والطهارة ضربان: طهارة جسم وطهارة نفس.

خالدون: الخُلد البقاء والدوام. خلد: دام وبقي. خلد الرجل: أبطأ عنه المشيب، وقد أسنَّ. خلد بالمكان وإليه: أقام. أخلد إلى الأرض: لصق بها واطمأن إليها (الأقرب). والخلود هو تَبَرّي الشيءِ من اعتراض الفساد وبقاؤه على حالته. وأصل المُخلد: الذي يبقى مدة طويلة، ثم استُعير للمبقي دائما. والخلود في الجنة: بقاء الأشياء على الحالة التي هي عليها من غير اعتراض الفساد. وكل ما يتباطأ عنه التغير والفساد تصفه العرب بالخلود، كقولهم للأيام خوالد، وذلك لطول مكثها لا للدوام.

التفسير: تتضمن هذه الآية وصفا مجملا للنعم التي سيلقاها المؤمنون في الجنة. وقد كانت حقيقة نِعَم الجنة ولا تزال محل الاعتراض من أعداء الإسلام، وأهم اعتراضاتهم ما يلي:

١. أن مثل هذه الوعود المزخرفة إفراط في إثارة الطمع ومناف للإيمان الكامل، لأن الإيمان المجلوب بالطمع لا يمكن أن يوصف بالإيمان.

٢. إن القرآن يقدم النعم المادية جزاء للإيمان، وهذا غير مقبول.

٣. إن الإغراء بالنعم المادية دليل على أن القرآن يقول ببقاء هذا الجسم المادي بعد الموت أيضًا، الأمر الذي يخالف العقل، لأن الجسم المادي مصيره الفناء، وأجزاء هذا الجسم الفاني تتحول وتنتقل إلى أجسام عديدة من البشر وغيرهم، فأنى لذلك الجسم الفاني أن يعود إلى صاحبه؟

٤. تتحدث هذه الآية وآيات أخرى عن وجود أزواج لأهل الجنة بما يومئ إلى علاقات جنسية تثير الشهوة. واستثارة الشهوات الجنسية في الحياة الآخرة تبعث على الاعتراض.. لأن الغرض الأساسي من الاتصالات الجنسية هو التناسل وحفظ النوع، فما الحاجة إلى ذلك في الجنة؟

٥. يتبين من صفات الجنة أنها محل للملذات المادية والمتع الجسدية وليست مقاما للنعيم الروحاني، ومثل هذه النعم المادية تافهة لا قيمة لها إذا ما قورنت بالنعم الروحانية.

وخلاصة هذه الاعتراضات أن الإسلام، معاذ الله، قد أسَفَّ بحياة الآخرة إسفافا؛ إذ جعلها محققة للأهواء النفسانية المنحطة، وبذلك أفسد معاني الحياة السامية الطاهرة.

ولإدراك مدى بطلان هذه الاعتراضات ينبغي أن نمعن النظر في صورة الجنة كما يقدمها القرآن الحكيم. لقد صرّح القرآن بحقيقة الجنة، وقدّم لنا الأساس الذي ندرك به ما جاء في القرآن عن صفاتها ونعيمها حيث قال تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٨).

ويتبين من ذلك أن كل ما ورد في القرآن الحكيم من وصف للجنة إنما هو على سبيل التمثيل ليس غير. وقد أكد الرسول ﷺ هذا المعنى وشرحه فيما رواه عن ربه عز وجل، قال: قال الله تعالى: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر". (صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الجنة. ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها).

فيتضح من ذلك أيضًا أن حقيقة نعم الجنة تختلف كل الاختلاف عن حقيقة النعم الدنيوية، فلو كانت هناك جنات وأثمار وأنهار وأزواج مادية لكانت مما رأته الأعين أو سمعت به الأذن أو خطرت على قلوب البشر مرارا وتكرارا.

ويتحدث القرآن الكريم عن نعيم الجنة فيقول: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (الرعد:٣٦).

تبين لنا الآية أن جنات الحياة الآخرة تختلف عن جنات الدنيا، فثمارها دائمة لا تنقطع، وظلالها ثابتة ممتدة لا تتقلص، ولكن ثمار الدنيا وظلالها إلى زوال محتم.

ووصف القرآن الحكيم الجنة في موضع آخر فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (محمد:١٦). وكذلك وصف القرآن الجنة فقال: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ *﴾ (الصافات:٤٦ إلى ٤٨).

في هذه الآية شرح لقوله ﴿لذة للشاربين﴾، فهي لذة لا تُحدث السكر والغيبوبة، وبذلك أشار إلى أن خمر الدنيا لا تثير لذة حقيقية، بل إنها تورث الغفلة عن الهموم والأحزان، ولكن خمر الآخرة ليس لها هذا الأثر المضيع للعقل.

وفي موضع آخر يضيف القرآن الكريم قوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُوراً﴾ (الإنسان: ٢٢). وقال: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين:٢٦-٢٩). وقال: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾ (الطور:٢٤).

يتبين مما سبق من الآيات أن أهل الجنة يشربون من خمر لا سكر فيها ولا عربدة، تقرب شاربيها إلى الله تعالى، تنبعث منها رائحة طيبة من المسك، وهي طاهرة مطهرة، لا يهذي شاربوها ولا يتشاتمون.

هذه هي خمر الآخرة كما يقدمها القرآن، فكيف خمر الدنيا؟ إنها تسبب السكر، وتبعث شاربيها على العربدة والبذاءة. وقد وصفها القرآن الكريم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ *﴾ (المائدة :٩١-٩٢).

فخمر الدنيا وخمر الآخرة شيء آخر تماما.. وكذلك نعم الجنة لها أسماء نعم الدنيا، ولكنها تختلف عنها كل الاختلاف.. ويراد بها النعم الروحانية دون النعم الجسمانية. وشتان ما بينهما! ولقد أدرك ذلك الصحابة "رضوان الله عليهم أجمعين"، فورد عن ابن عباس "رضي الله عنهما" أنه قال: "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء" (تفسير ابن جرير ج ١).

وأقول لمن يسأل عن السبب في استعمال القرآن لتلك الأسماء.. مع ما بين نعم الجنة ونعم الدنيا من مغايرة: إن القرآن الكريم يخاطب جميع طبقات بني الإنسان.. الصديق والعدو، علية القوم وأرذلهم.. ولذلك يحدثهم، وعلى الأخص في الأمور التي يتعذر فهمها على الناس، بلغة يفهمها ويطمئن إليها العامة، وينتفع بها الخاصة، وتفحم الأعداء.

وبالنظر إلى هذه الحكمة استعمل القرآن الحكيم في وصف نعيم الآخرة كلمات يجد فيها كل الناس الطمأنينة والارتياح على قدر عقولهم ودرجاتهم. فحينما يقول القرآن المجيد إن للمؤمنين جنات ذات ظل ظليل، وأنهارًا جارية، ولبنا سائغا لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وعسلا مصفى من الشوائب، وخمرا نقية لا تسكر، مطهرة للقلوب.. فإنه بذلك القول يرد على المعترضين قائلا: إن الأشياء التي تعدونها متاعا وتعتزون بها هي أحط من النعم التي يتمتع بها المؤمنون في الجنة. إن أنهاركم التي تنعمون بها يأسن

ماؤها ويتعفن، أما أنهار المؤمنين فلا يأسن ماؤها. وإن الجنات التي تسعدون بها في الدنيا ليست بنعمة حقيقية، لأن النعمة كل النعمة هي نعمة أهل الجنة الأخروية التي لن يصيبها الخراب. وإن الخمر الذي تستلذون بها في هذه الدنيا إنما هي رجس وآفة تعطل العقل، أما الخمر التي يهبها الله المؤمنين فهي تشحذ العقل وتورث الطهارة والتقوى. والعسل الذي تفتخرون به تشوبه الشوائب، ولكن المؤمنين يأكلون في الجنة عسلا مصفى. وإن الأزواج والرفاق الذين تتباهون بهم، إنما هم غير طاهرين ولكن الله يعطي المؤمنين أزواجا ورفقاء طاهرين.

إن هذه المعاني السامية البينة لا يدركها ولا يبلغ كنهها إلا كل من يتخلى عن التعصب ويتخلص من الجهالة التي ليس إلى علاجها من سبيل. كان الأجدر بهؤلاء المعترضين النصارى أن ينظروا في كتابهم المقدس حيث قيل لهم: "اكنـــزوا لكم كنوزا في السماء" (متى ٦: ٢٠).

وقيل أيضًا: "فاذهب وبع أملاكك، وأعط الفقراء فيكون لك كنـــز في السماء" (متى١٩: ٢١).

إذا كان ادخار المال في السماء، ولقاء الكنز بعد الموت هناك ممكنا، فكيف كانت الجنات والأنهار والعسل واللبن والخمر التي لا تسكر مخالفة للعقل؟

ولست أريد أبدًا بما سبق من البيان تجريد الحياة الآخرة من الجسم كليًا وكأنها ليست إلا روحانيةً، ولا أنّ نِعَمَها مقصورة على مشاعر القلب فقط. كلا فإن الروح لا بد لها من جسم في كل الأحوال، وإذا كان الجسم المادي الدنيوي يفنى بعد الموت.. فإن الإنسان سيحظى في الحياة الآخرة بجسم يختلف عنه كل الاختلاف. ولإدراك حقيقة الحياة الآخرة أوجد الله تعالى لنا في هذه الدنيا عالم المنام كي نقدرها بعض التقدير. وقد أوضح القرآن المجيد العلاقة بين الحياة الآخرة وعالم المنام، وربط بينهما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر:٤٣).

تدل هذه الآية على أن الموت والمنام متشابهان، وإنما الفارق بينهما أن الروح تفارق الجسم عند الموت فراقا أبديا، وعند المنام تفارقه فراقا مؤقتا. وترى الروح خلال هذا الفراق المؤقت مناظر عديدة، وتجد لها جسما جديدا وبيئة جديدة، وتحس بمختلف الأحاسيس، وتأكل وتشرب وتتحرك وتتمتع وتتألم. ومن ثم يمكن لنا أن نقيس الحياة الآخرة على المنام قياسا قريبا.

إن المناظر التي يراها الإنسان في المنام ليست روحانية خالية من الجسم، بل هي خليطة بالجسم.. ويمكن أن نسميها شبه مادية، أو مادية على نحو ما، لأننا نرى لها جسما ملموسا. وهذه المناظر أو الرؤى بتعبير أصح.. تعبر عن حقائق معينة. والحق أن النعم الدنيوية صورة ممثلة للنعم الأخروية.. بمعنى أن نعم الآخرة هي الأصل، والنعم الدنيوية تمثيل لها وتصوير لحقائق ذلك الأصل. وإذا كان التمثيل

الدنيوي شهيًا لذيذا.. فحدث عن الأصل الأخروي ولا حرج؛ إذ إن شعور الروح أقوى من شعور الجسد وأشد.

إن الكتب السماوية تأمر بالأعمال الحسنة من عبادات وإحسان كالصدقة والعفو وأمثالهما، ولكن القرآن الكريم يمتاز عنها جميعا بأنه يأمر بالأعمال الصالحة.. وهي أوسع معنى وأشمل نطاقا.

إن تعاليم القرآن المجيد لا تكتفي بمجرد الأعمال الحسنة لتطهير الإنسان.. بل من اللازم أن تكون الأعمال صالحة. فالقيام بالعبادة طبق أوضاعها الظاهرة ليس مقبولا في ميزان القرآن.. ما لم تكن تلك العبادة نقية من شوائب الرياء. نعم، إن شعائر الصلاة عمل حسن، لكن دخول الرياء عليها يجعلها عملا غير صالح.. فلا يقبلها الله تعالى. ولو أن رجلا يحسن السباحة قام إلى الصلاة وهو يسمع صرخات غريق.. فإن صلاته ليست عملا صالحا، وإن كانت من حيث الظاهر عملا حسنا.. لأن مقتضى الأحوال يستدعي إنقاذ الغريق أولا. وكذلك عفو القاضي عن الظالم، وصفحه عن المجرم دون مبرر، وتفريق مال الأمانة على الفقير، وأمثال هذه الأعمال ليست من الصالحات وإن بدت حسنة المظهر.

وملخّص القول، إن العمل الصالح أوسع معنى من العمل الحسن. والعمل الصالح هو العمل الحسن.. لا من حيث ظاهره فحسب، بل يجب أن يكون حسنا في حقيقته وباطنه ومحله. والقائم بالعمل الصالح ليس هو الذي يتبع الكلمات على غير هدى، بل إنه الذي يستعمل عقله، وينظر في عمله كي يكون طبق مقتضى الحال..والذي لا يقتنع بالقيام بعمل حسن، بل ينظر ويفكر في أن تكون أعماله الحسنة مؤيدة للمصالح الروحانية أو المادية للجميع.

ويعبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بأسلوب رائع حيث يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (الشورى:٤١).

وتتكشف هذه الحقيقة من أقوال النبي ﷺ: "عن أبي هريرة قال: سئل النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: جهاد في سبيل الله" (البخاري، كتاب الحج). وقال ابن مسعود سألت رسول الله ﷺ قلت: "يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة على ميقاتها. قلت ثم أي؟ قال: بر الوالدين؟ قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله".(البخاري، كتاب الجهاد).

فالرجل الذي أخبره النبي ﷺ بأن الجهاد خير عمل بعد الإيمان كان يتقاعس عن الجهاد، فكان بناء إيمانه وتقواه ناقصًا، لا يدعمه العمل الصالح من الجهاد، فكأنه ﷺ يوجهه ويقول له: إن الجهاد أولى بحالك الآن وأصلح لها دون سائر الأعمال الصالحة التي تقوم بها.

وحينما أوصى المصطفى ﷺ الشخص الآخرَ بأن خير العمل هو إقامة الصلاة على ميقاتها، ثم بر الوالدين ثم الجهاد، رأى أحوال المخاطبين الذين كانوا مقصرين في أداء الصلاة، ولا يقومون ببر الوالدين

حق القيام.. فكان الأصلح أن يؤمروا بإقامة الصلاة على ميقاتها وبِرّ الوالدين.. لكي يُسدَّ الفراغ في بناء أعمالهم.

وقد بشر الله تعالى بهذه الآية ذوي الإيمان والعمل الصالح بالجنات.. وذلك لأن الإيمان كبُستان يرويه العمل الصالح.. فينضر ويخضر. والذي لا يقوم بالأعمال الصالحة بعد أن يؤمن تجف شجرة إيمانه وتذبل.. يقول الله جل وعلا:﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر:١١). ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ (إبراهيم : ٢٥).

ويشير قوله تعالى: ﴿أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ إلى أن لكل إنسان من أهل الجنة نطاقا محددا من النعم لا يتدخل فيه أحد، ولكل منهم روضة مختصة به دون غيره، يسقيها نهر يخصها، ولن يكون كما نرى في هذه الدنيا أن نهرا واحدا يسقي عدة مزارع فيتنازع أصحابها في مياهه.

أما قوله تعالى: ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾ فله عندي معنيان.

الأول: أن الجنات تمثل الإيمان، والثمرات تمثل لذة الإيمان، وحينما يؤتى أهل الجنة أثمار الجنة يقولون: إنها حلاوة الإيمان الذي وهبه الله لنا في الدنيا، وإن إيماننا الذي آمناه لم يضِع، بل إنه ما زال يثمر لنا أحلى الثمرات.

ومن البين أن هذه الكلمات تفيض بعاطفة الشكر والامتنان، وأليق بشأن أهل الجنة، وأولى وأحق بعظمة الله وكبريائه. فهم عندما يؤتون شيئا من الثمرات يذكرون نعمة الإيمان، ويرددون الشكر على فضل الله الذي أورثهم ذلك الإيمان وأعقبهم ثمراته.. وكذلك لا يبرحون يشكرونه تعالى على تلك النعمة التي يحظون بها بصورة ثمار روحانية لذلك الإيمان.

والمعنى الثاني: أن قوله ﴿رزقنا﴾ يعني وُعدنا به، فالمؤمنون كلما أوتوا من ثمرات الجنة قالوا: هذه الثمرات هي التي وعدنا في الدنيا. وهذا الأسلوب وارد في القرآن في قوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة:٢٣٤).. حيث يعني قوله ﴿ما آتيتم﴾ أي ما قد وُعدتم بإيتائه وعدا موثقا.

وقوله تعالى: ﴿وأتوا به متشابها﴾.. فسره البعض بأن ثمرات الجنة تشبه ثمار الدنيا، أو أن الثمرات تتشابه صورةً وتختلف مذاقًا. والأول باطل لأن التشابه بين نعم الجنة ونعم الدنيا معدوم بنص القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ. والثاني أيضًا باطل لأنه لا دليل عندهم على تشابه صور الثمرات واختلاف مذاقها.

وعندي أن المعنى الصحيح المناسب لذلك ما يلي:

أولا: أن لذة ثمرات الجنة ستكون كلذة العبادات والقربات التي قام بها المؤمنون في الدنيا. فالمؤمن عندما يذوق شتى ثمرات الجنة ويتلذذ بها يقول: هذه اللذة مِثل الصلاة التي أقمتها، وهذه اللذة مثل

الصوم الذي كنت أصومه، وهذه اللذة كلذة الحج الذي أديته.. وهذه كلذة الصدقة التي كنت أتصدق بها، وهذه اللذة كذلك العفو الذي تعاملت به مع الناس.. وهكذا فإن الأعمال الصالحة كلها ستتمثل لهم في الجنة، فتفيض قلوبهم بعواطف الشكر لربهم قائلين: إن ربنا الرحيم لم ينس كذا وكذا من صلاتنا، وما أضاع كذا وكذا من صدقاتنا. أجل، إنهم سوف يشعرون في كل ثمرة يذوقونها أن الله تبارك وتعالى قدر أعمالهم حق قدرها، وسوف يتذكرون تلك اللذات التي تمتعوا بها عند قيامهم بتلك الأعمال الصالحة.

وثانيا: إن ما يُرزق به أهل الجنة من النِّعَم والثمرات سيكون متشابه الخواص متوافق التأثيرات، وهو بذلك يختلف عن أطعمة الدنيا التي تكون في كثير من الأحيان متضادة التأثير، فقد يكون أحدها مفيدا للمعدة والآخر مجهدا لها، وقد يكون أحدها نافعا للقلب والآخر مضرا به. وكذلك الأعمال الروحانية في الدنيا تعارضها وتعرقلها السيئات، فتتناقص هذه وتزيد تلك أو عكس ذلك.. لكن غذاء الجنة الروحاني يكون متشابه التأثير، كل عنصر من عناصره متوافق مع غيره، وكلها متعاونة على التقدم الروحاني.. وتكون الروح الإنسانية بريئة من كل الأسقام.

وثالثا: أن غذاء الجنة سيكون بحسب القوى الداخلية للإنسان، فينال كل واحد بغيته من الغذاء بما يكفي متطلبات قوته الباطنية، ويهيئ له كل ما يحتاج إليه من غذاء لتقدمه الروحاني.. فلن تزال قواه الروحانية تنمو وتزدهر ولا تحول دون ذلك أية حوائل.

وقوله ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾ هم الرفاق المطهرون، أو الأزواج من الإناث المطهرات، أو الأزواج من الرجال المطهرين. وبالمعنى الأول فإنه كما يكون الغذاء متوافق الأنواع في الجنة.. كذلك يكون أهل الجنة متعاونين على التقدم الروحاني.. وتكون الروح الإنسانية بريئة من كل الأسقام. فهناك أمن كامل ناتج عن توافق باطني وتعاون خارجي.

وكلمة الأزواج تطلق على الذكور والإناث، فيكون المعنى الثاني للجملة أن لكل واحد من أهل الجنة زوجا صالحا.. وليس ذلك مما يدعو للاعتراض.. إذ إنه يحث الرجل على أن يرغب في زوجة صالحة، والمرأة على أن يكون زوجها صالحا، لأنهما إذا رغبا في أن يكونا مجتمعيْن في الجنة أيضًا، فعلى كل واحد منهما أن يبذل جهده ليجعل زوجه صالحا.. لئلا يفترقا في الآخرة.. فيكون أحدهما في الجنة والآخر في النار، وهذا المعنى من أروع التعاليم لنيل الطهارة الروحانية في الدنيا، وهو الأجدر بالتنويه.. فضلا عن أن يكون مدعاة للاعتراض.

وإذا أردنا بذلك أنه في الجنة يكون لكل رجل زوجة مطهرة ولكل امرأة زوج مطهر فلا محل أيضًا للاعتراض، لأن القرآن الكريم يصف هؤلاء الأزواج بالطهر، ولن يكون في الجنة ما ينافي هذه الصفة أبدًا.

وقد تحدث المستشرق "وليام موير" والقسيس "ويري" عن هذه الآية بتعليق قذر حيث قالا: إن السور المكية من القرآن تُكثر من ذكر النساء في الجنة، بينما لا تذكر السور المدنية ذلك إلا قليلا. ويستنتجان من ذلك، والعياذ بالله، أن محمدا لم تكن له في مكة سوى زوجة واحدة أسنّ منه، لذلك كان يكثر عندئذ من تَذْكار النساء، لكنه في المدينة وجد بغيته فقلل من ذكرهن. إن هذا المستشرق وليام موير وأضرابه.. عندما يلفقون مثل هذه التهم فإنما يرون نفوسهم وصورهم البغيضة في مرآة القرآن الكريم، وهم يسلكون مسلك التعصب الصليبي المعروف لدى القساوسة. ومن العجيب أنهم يدَّعون الأمانة العلمية، ويتباهوْن بالاستنارة والثقافة، ومع ذلك تراهم يتهجمون بناء على أوهامهم الباطلة على مقامات أهل القداسة عند الملايين من المسلمين.. بينما يكون هؤلاء المعترضون أنفسهم ملطّخين بحمأ الرذائل ومنغمسين في أحط دركات الفجور والخلاعة.. بما يندى له وجه الإنسانية. وما بعثهم على هذا التجرؤ إلا شوكة الحكومات المسيحية في هذا الزمن. ألا يستحي هؤلاء المتهجمون على قدسية أطهر البشر؟! إن المسلمين قد حكموا النصارى زهاء ألف عام.. ومع ذلك ما صدرت من خليفة أو ملك مسلم إهانة أو كلمة نابية بحقّ المسيح الناصري عليه السلام. ولو أنهم ذكروا هذه المنة من جانب الإسلام والمسلمين، وقلّلوا من اغترارهم بأنفسهم ما تهجموا على مقام سيد الأنبياء وصفوة المرسلين ﷺ كالذئاب الضارية.

والحق أن حياة النبي ﷺ في مكة كانت أرغد من حياته في المدينة.. فزوجته المطهرة السيدة خديجة (رضي الله عنها) كانت ذات ثراء عريض، وقفت كل مالها على خدمة الرسول ﷺ. وكانت بناتها المطهرات قد بلغن الشباب وتزوجن بمكة، وجُهّزن بأغلى الحلي.. بينما تزوجت أصغرهن السيدة فاطمة (رضي الله عنها) بالمدينة ولم تحظ ولا بحلقة من حديد. وبالجملة كانت الأوضاع المالية للنبي ﷺ في مكة أحسن منها في المدينة. ولقد أنفق المصطفى ﷺ جميع ثروة السيدة خديجة (رضي الله عنها) في سبل الخير شيئا فشيئا حتى لم يبق له ذلك الرخاء في حياته المدنية. فلو كان الفرق بين حياته المكية والمدنية لبعض الدواعي النفسية، لكان الأمر على عكس ما يزعم المستشرق المفتري وأشياعه.

وإذا كان استدلال المتهجم الصليبي صحيحا، كان معارضو المسيحية أحق بأن يقولوا إن "يسوع" الناصري لم يكن يجد ملجأ طوال حياته، واضطر أن يفر من مكان إلى مكان خوفا من اليهود ولذلك كان يتبجح بأنه سيكون ملكا لليهود، وأنه كان يحلم دائما بالنساء الأبكار لأنه لم يتزوج طول حياته، حيث جاء في إنجيل متى:

"حينئذ يُشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذنَ مصابيحهن وخرجن للقاء العريس. وكان خمسٌ منهن حكيماتٍ وخمسٌ جاهلات. أما الجاهلات فأخذن مصابيحهن ولم يأخذن معهن زيتا. وأما الحكيمات فأخذن زيتا في آنيتهن مع مصابيحهن. وفيما أبطأ العريس نعسن جميعهن ونمن. ففي نصف الليل صار صراخ: هو ذا العريس مقبل فاخرجن للقائه. فقامت جميع أولئك العذارى وأصلحن مصابيحهن، فقالت الجاهلات للحكيمات: أعطيننا من زيتكن فإن مصابيحنا تنطفئ. فأجابتِ الحكيمات قائلاتٍ: لعله لا يكفي لنا ولكن اذهبن إلى الباعة وابتعنَ لَكُنَّ. وفيما هن ذاهبات ليبتعن جاء العريس والمستعدات دخلن معه إلى العُرس وأغلق الباب. أخيرا جاءت بقية العذارى أيضًا قائلات: يا سيد يا سيد افتح لنا. فأجاب وقال: الحق أقول لكُنَّ إني ما أعرفكن" (متى: ٢٥ من ١ إلى ١٢).

ولو أن المتهجمين فكروا بتدبر لعرفوا السبب وراء ما بين السور المكية والمدنية من فرق.. ذلك أن كفار مكة عيّروا المسلمين بالذل والفقر، وحرمانهم مما بأيدي الكفار من نعم ومتع مادية.. ولذلك رد عليهم القرآن المكي بوصف الجنة التي اختص بها المؤمنون، وبيّن أن المسلمين سينالون في الآخرة متاعا ونعيما أوفر مما يباهي به الكفار. ولما ثبَّت الله أقدام المسلمين في المدينة لم يَسَع الكفار أن يعيروهم، لذلك تغير الأسلوب القرآني. كما أن العهد المكي كان يمثل مرحلة تثبيت العقائد واستيفاء شرحها.. ومنها عقيدة الجزاء الأخروي وما فيه من جنة ونار، ولذلك أفاض القرآن في شرحها في السور المكية.

وقوله ﴿وهم فيها خالدون﴾ يعني أن أهل الجنة لا ينفكون مقيمين فيها، ولن يذوقوا الفناء. وهذه هي النتيجة المحتمة لما سبق ذكره من أن الهلاك يصيب الإنسان بسبب فساد الطعام والشراب أو بمؤثر خارجي يقتله. لما كان غذاء الجنة متطابقا مع قوى الإنسان الباطنية، وكان أهل الجنة أخيارا متحابين متطهرين.. فلن يكون هناك ما يؤذيهم أبدا، ومن ثم تغلق أبواب الموت نهائيا.. ويحظى الإنسان بالحياة الأبدية.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦

شرح الكلمات:

يستحيي: حَيِيَ منه حياءً: احتشم. استحيا: حيي. الحياء: انقباض النفس عن شيءٍ وتركه حذرًا من اللوم فيه. استحيا الأمرَ ومنه: امتنع عنه وانقبض منه (الأقرب). فقوله ﴿لا يستحيي﴾ أي لا يمتنع.

يضرب: ضربه بيده: صدمه وأصابه بها. ضربه بالسوط: جلده. وضرب له مثلا: وصفه وقاله وبيّنه.

المثل: الشبه والنظير؛ الصفة؛ الحجة، يقال أقام له مثلا أي حجة؛ الحديث؛ القول السائر؛ العبرة؛ الآية (الأقرب).

فوقها: الفوق من الأضداد، فإذا كان مستخدمًا في معنى الكبر فيعني أنه أكبر منه، وإذا كان مستخدما في معنى الصغر فيعني أنه أصغر منه. ويمكن أن نأخذه هنا بكلا المعنيين. أي ما هو أكبر من البعوضة أو ما هو أصغر منها. يقولون: فلان أسفل الناس وأرذلهم؛ فيقال: هو فوق ذلك؛ أي أكثرهم سفالةً من ذلك (الكشاف).

الحق: ضد الباطل؛ الأمر المقضي؛ العدل؛ المُلك؛ الموجود الثابت؛ اليقين بعد الشك (الأقرب).

يضل: أضلَّه: غيَّبه؛ دفنه؛ أضاعه؛ أهلكه. أضلّ فلان الفرس والبعير: شردا وذهبا عنه ولم يدر أين أخذا (الأقرب). أضل الله فلانا: صيّره إلى الضلال. وإضلال الله للإنسان على أحد وجهين: أحدهما أن يكون سببه الضلال، وهو أن يَضِلَّ الإنسان فيحكم الله عليه بذلك في الدنيا، ويعدل به عن طريق الجنة إلى النار في الآخرة، والثاني من إضلال الله هو أنه تعالى وضع جبلة الإنسان على هيئةٍ إذا راعت طريقًا، محمودا كان أو مذموما، ألفه واستطابه ولزمه وتعذر صرفه وانصرافه عنه، ويصير ذلك كالطبع الذي يأبى على الناقل. وكل ما هو سبب في وقوع شيء صحّ نسبة ذلك الفعل إليه، فصح أن يُنسب ضلال العبد إلى الله من هذا الوجه"المفردات، الكليات". يضل به كثيرا: أي بحسب تعاليم القرآن يحكم الله عليهم بالضلال.

الفاسقين: جمعُ فاسق. فَسَق: ترك أمر الله؛ عصى وجار عن قصد السبيل، يقال: فسقت الركاب عن قصد السبيل: خرج عن طريق الحق؛ فجر؛ يقال: فسقت الرطبة عن قشرها أي خرجت. فسق فلان ماله: أهلكه وأنفقه (الأقرب). الفاسق: من يتنكب الطريق السوي. الفسوق: الخروج عن الدين؛ الميل إلى المعصية؛ النسيان والترك لأمر الله؛ الخروج عن طريق الحق. وتسمى الفأرة فويسقة لخروجها على الناس وإفسادها (اللسان). وأكثر ما يُقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقر به، ثم أخل بجميع أحكامه أو بعضها. وإذا قيل للكافر الأصل فاسق.. فلأنه أضل بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة (المفردات). فالفاسق: العاصي؛ التارك لحكم الله؛ والرافض له؛ تارك الحق بعد قبوله.

التفسير: ذكرت الآية السابقة نعيم الجنة ومشابهته لنعيم الدنيا.. ردا على تباهي الكفار بما لديهم من متاع دنيوي، وبثًا للطمأنينة في قلوب فقراء المسلمين. ولما كان نعيم الجنة أسمى من نعيم الدنيا في طبيعته ودرجته ومقداره.. فإن هذا لا يقاس بذلك أبدا إلا على وجه التمثيل وتقريب المعنى. ولقد صرح القرآن الكريم بأن نعيم الجنة هو النعيم الحق، وأن حياة الجنة هي الحياة الروحانية الأسمى، وأن متع الدنيا ما هي إلا قطرة من بحر متع الجنة. وتتضمن هذه الآية إزالة أية شبهة، والإجابة على أي اعتراض بسبب هذا الفارق الشاسع بين حقيقة الجنة وما يساق لها من وصف. وتقول الآية إن أسلوب التمثيل مفيد في تقريب الحقائق من الأفهام، وليس في استخدامه ما يدعو للاستنكار.

والعلم في قوله ﴿يعلمون أنه الحق من ربهم﴾ يعني اليقين، لأن الفعل له مفعولان. وتدل الجملة على أن المؤمنين يعرفون حق المعرفة على أنه هو الحق، لأنه من عند الله، أو أنه الحق لأنهم يحسون بهذه المتع تماما كما يخبر الله تعالى. إن نِعَم الجنة تشبيهات دقيقة لا تصوِّر حقيقة تلك النعم، وإنما هي استعارات فقط. يقال للرجل إنه جبل.. إذا كان رابط الجأش ثابت الجنان، ولا يعني ذلك أن حقيقة الرجل هي حقيقة الجبل، وإنما يراد أن مكانة الرجل في عالم الأخلاق كمكانة الجبل في عالم الأجسام. فالمؤمنون ينوهون بصحة تلك الاستعارات ويعرفون مطابقتها لما يحسون به، ولكن الكفار على عكس ذلك لا يشعرون بشيء منها، أو أنهم يرفضون العلم بها ويقولون ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾. واستنكارهم هذا ليس إلا عن تعصب وجهل.. لأن الاستعارة والتشبيه أسلوب معروف في كيان كل لغة، ويعتبرها الكتاب البارعون من أروع الأساليب. والحق أن المعاني اللطيفة غير المرئية لا يمكن تقريبها إلى الأفهام إلا بالتشبيهات. فالاستعارات والتشبيهات ليست مجرد أسلوب للتعبير عن المبالغة.. بل إنها من ضروريات اللغة الإنسانية، لأنها تقرب الحقيقة إلى الأفهام.

وقوله ﴿يُضِلُّ به كثيرا ويهدي به كثيرا﴾ يعني أن المؤمنين هم أبطال الروحانية الذين يتمتعون بلذائذها، ولذلك يستشعرون بقلوبهم بعض حقيقتها عندما يقرءون تلك الاستعارات القرآنية. إنهم تذوقوا طعم الصلاة، وعرفوا متعة الصيام، وتمتعوا بلذة الصدقات، كذلك جربوا نعيم هذه الأعمال. لقد ذاقوا طعم العمل ولذة عقباه.. ومن ثم فهم يدركون كنه المشابهة بين الثمار الجسمانية والملذات الروحانية. لكن الكفار الذين خمد شعورهم الروحاني، وهم أبعد ما يكونون عن التلذذ بالعبادات، وليسوا مِن تذوُّق نِعَم الله المترلة في شيء، فمثلهم كالأعمى الذي توصف له الألوان فلا يتبين منها شيئًا، ويستنكر الوصف!

وكما رأينا في معاني كلمة ﴿يضل﴾ فإن قوله ﴿يضل به كثيرا﴾ يعني يهلكهم أو يدخلهم في عداد الضالين. ويؤكد هذا المعنى قوله ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾. فالذين فسقوا يدخلون في زمرة الضالين

ويلاقون مصيرهم. فالضلال ينشأ عن فعل الإنسان نفسه، والحكم الأخير لله تعالى الذي يقضي بأن هذا ضال وذاك مهتد.

ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

ينقضون: نقض العهد والأمر: ضد أبرمه؛ أفسده بعد إحكامه (الأقرب).

عهد: العهد: الوفاء؛ الضمان؛ المودة؛ الذمة؛ الوصية؛ الموثق. عهد فلان الشيءَ: حفظه ورعاه حالا بعد حال. قيل هذا أصله، ثم استعمل في الموثق الذي يلزم مراعاته (الأقرب).

الخاسرون: خسر التاجر: ضد ربح. خسر الرجل: ضلّ وهلك. (الأقرب)

وبهذه المناسبة أذكر أني بحثت في المعاجم والقواميس عن فعل "خسر" فلم أجده يستعمل إلا لازمًا، ولكن العجيب أن جميع المفسرين فسروا كلمة ﴿خسروا أنفسهم﴾ متعدية بمعنى ﴿أُهلكوا﴾. أما صاحب (التاج) فيقول: "لا يستعمل هذا الباب إلا لازما كما صرح به أئمة التصريف". ثم يقول: "إن هؤلاء الأئمة أخطئوا لأن القرآن استخدم هذا الفعل متعديا".

الواقع أن الفعل لازم، ولكن الأسف أن معاجمنا وقواميسنا متأثرة بالدين حتى جعلوا اللغة أيضًا تحت تأثير التفسير، وهذا لم يخدم الإسلام شيئا وإنما أضر به.. إذ اختفت بسبب هذا التصرف الكثير من معارف القرآن عن أعين الناس. ليت هناك من يشمر عن ساعد الهمة والجد ويصنف قاموسا لغويا حرا تماما عن تأثير التفاسير الدينية، حتى يخرج الناس من هذا القيد الضاغط المجافي للحق.. فيسهل عليهم فهم القرآن الكريم!

فمثلا في قضية "خسر" لو أننا لم نخضع لرعب التفاسير، والتزمنا بقواعد اللغة.. لحللنا هذه المسألة بدون اللجوء إلى مخالفة القواعد لجعله متعديا. فيمكن أن نعامله معاملتنا لفعل "سَفِه" كما في قوله تعالى ﴿سَفِهَ نفسَه﴾.. بتقدير حرف جر محذوف تقديره "في"، أي سفه في نفسه؛ أو نعتبر كلمة "نفس" تمييزا يأتي أيضًا معرفة كشاذ. كذلك في ﴿خسروا أنفسهم﴾ يجوز تقدير المعنى: خسروا في أنفسهم، أو اعتبار ﴿أنفسهم﴾ تمييزا.

التفسير: تبين هذه الآية بعضًا من صفات الفاسقين الذين جاء ذكرهم في الآية السابقة. فهم أولا: ينقضون ما عاهدوا الله عليه، وهم ثانيا: يقطعون الصلات التي أمر الله تبارك وتعالى بإحكامها، وهم ثالثا: يثيرون في الأرض الاضطراب والفساد.

أما عن نقض العهد فيراد به أمران: أولا: ترك التوحيد الذي يقوم على شهادة الفطرة الإنسانية والتي أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٣).

فالذين يعرضون عن هذه الفطرة السوية يقعون في هوة الشرك، ويكونون كمن ينقض ذلك العهد الذي تعهدت به كل فطرة إنسانية من التمسك بالتوحيد.

ثانيا، العهد الذي يأخذه كل نبي على قومه بأن يؤمنوا بأي نبي يرسله الله إليهم، وقد ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران:٨٢).

وفيما يتعلق بقطعهم الصلات فإن محبة الله تذوي في قلوبهم، ولا يرعون صلتهم بالله تعالى فتنقطع علاقتهم به، ويكون حبهم قاصرا على الدنيا وشهواتها.

أما الصفة الثالثة، وهي الفساد في الأرض، فهي نتيجة حتمية لعدم إخلاصهم حتى في حب الدنيا.. إذ إنهم لا يحفظونها من الاضطراب والسوء، ومن ثم فهم الخاسرون من جميع الوجوه: فساد في الحياة الدنيا، وضياع الحياة المخلدة في الآخرة.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ تُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

أموات: جمع ميْت وميّت. والميت من فارق الحياة؛ من لا حياة فيه أصلا (الأقرب). (ولمزيد من المعاني راجع شرح المفردات للآية رقم٢٠).

التفسير: قوله ﴿كيف تكفرون بالله﴾ عود إلى الموضوع الأصلي.. الوحي الإلهي الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾. والكفر على نوعين: الكفر بذات الله تعالى، وكفر بأحكامه أو ببعض صفاته، وهذا هو المراد هنا.. أي الكفر بكلام الله تعالى.

إن الحياة الروحانية مستحيلة بدون الوحي الإلهي، ولا يمكن للعقل أن يدرك وسائلها. فالآية الكريمة تلفت الأنظار إلى ضرورة التفكر في أن الله تعالى قد هيأ للإنسان جميع الوسائل للحياة الدنيوية، فكيف يمكن أن يحرمه من وسائل الحياة الأخروية.. مع أنها هي الأهم والأسمى؟

﴿وكنتم أمواتا﴾.. أي عدَمًا بلا حياة ولا وجود، ﴿فأحياكم﴾.. أي وهبكم الحياة وأوجدكم من عدم، ﴿ثم يميتكم﴾.. بأن يقبض أرواحكم، ﴿ثم يحييكم﴾.. أي يعيدكم إلى الحياة الآخرة التي بها الرجوع إلى الله تعالى في نهاية المطاف. فكأن الإنسان يتعرض لأحوال أربع: عدم ثم حياة ثم موت ثم عودة إلى الحياة يرجع بها إلى الله.

وبهذه الآية يخبرنا الله تبارك وتعالى أنه وقد أعطانا الوجود والحياة، ثم يسلبها منا.. كيف يُستغرب منه أن يعيدنا إلى الحياة؟! إن استحالة ذلك يناقض العقل. وإذا كانت الحياة الآخرة حقا.. فلا بد أن يمدنا من عنده بشريعة هادية، نستعد بها لتلك الحياة كما أمدنا بوسائل العيش في الحياة الدنيوية.

وبهذه الآية أيضًا يبطل الله تعالى زعم من ينكرون عذاب القبر ونعيمه. إن استعمال حرف ﴿ثم﴾ قبل قوله ﴿إليه ترجعون﴾ إنما يدل على أن الميت يلقى حياة عاجلة بعد موته الدنيوي مباشرة وقبيل حشره. وهذه الحياة القصيرة لا تخلو من ثواب وعقاب.. وإلا كانت مهملة ولا لزوم لها. فإذا كان فيها ثواب وعقاب بصورة موجزة فقد تحقق وجود ثواب القبر وعقابه. والأحاديث النبوية تدعم هذا، كما أن القرآن الكريم يدل دلالة واضحة على هذه الحقيقة في قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر:٤٧).. أي أن آل فرعون يذوقون عذاب النار قبل يوم الحشر والحساب النهائي، ونظرا للأسلوب الذي ذكرت به الآية وعد الحياة بعد الموت يمكن أن تكون فيها أيضًا إشارة إلى الموت القومي والحياة القومية؛ والمراد بأن العالم كان ميتا فأحياه الله بالقرآن، وسوف يموت مرة أخرى وسوف يحييه الله أيضًا مرة أخرى، وكأن الآية تتنبأ ببعثتين للإسلام؛ الأولى في زمن المصطفى ﷺ، والثانية في هذا الزمن الأخير والتي أشير إليها في قوله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِم﴾ (الجمعة). وبناء على هذا يعني قوله تعالى: ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أن القيامة ستقوم بعد البعثة الأخيرة للإسلام، ومن ثم فهي إشارة إلى أن الإسلام هو آخر الأديان، ولا دين سواه إلى يوم القيامة.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

استوى وسوّى: استوى صار سويا؛ اعتدل؛ لم يبق فيه نقص؛ زال اعوجاجه. استوى الطعام نضج. استوى الإنسان صار شابا أو بلغ الكمال. استوى الملك على سرير الملك: استولى عليه، يقول الشاعر: "فلما علونا واستوينا عليهم". استوى: علا وارتفع. استوى إلى شيء: اتجه إليه. فمعنى ﴿استوى إلى السماء﴾: قصدها. سوّى الشيء جعله سويا؛ صنعه مستويا. سوَّى به أو بينهما: عدلهما (الأقرب): فمعنى ﴿سواهن﴾ خلقهن مراعيا كل ما يلزمهن.

سبع: يراد به الكثرة أيضًا لأن عدد السبع والسبعين تستعملان في اللغة العربية لمجرد الكثرة أيضًا.

التفسير: تخبر هذه الآية أن الإنسان لما جاء إلى حياته الأولى على الأرض.. وجد أن الله تعالى قد هيأ له كل ما في الأرض لكي يستخدمه وينتفع به، وهذه حقيقة قيمة قدمها القرآن وحده بهذه الصورة.

فأولا: قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ يبطل عقيدة الشرك. فكل كائن في الأرض مخلوق لخدمة الإنسان.. وبذلك بطلت ألوهيته، إذ من المستحيل أن يكون الخادم معبودا يؤلَّه.

ثانيا: فتح بذكر هذه الحقيقة أبواب التقدم في العلوم الطبيعية، لأن هذا العلوم تتوقف على البحث والتنقيب، والآية الكريمة تقرر أن كل ما في الأرض مخلوق لصالح الإنسان، وبذلك تحقق الدافع القوي للبحث الدءوب في كل النواحي.. إذ ليس في هذا العالم شيء باطل دون فائدة. ويكشف العلم كل يوم مصداق هذه الآية الكريمة.. التي أزاحت الغطاء عن هذا المبدأ العلمي العظيم في تلك القرون المظلمة.

ثالثا: إن كلمة ﴿جميعا﴾ تبين أن الشيء النافع إذا تركب من أجزاء.. فكلها أيضًا تدخل في باب النافع للإنسان. وبذلك يدعو الإنسان لبحث تركيب الأشياء للانتفاع بمركباتها الأصلية أيضًا.

رابعا: تشير الآية إلى أن كل ما في الأرض تراث عام لبني الإنسان قاطبة، فلا يصح استعماله بصورة تجعله ملكا مقصورا على فرد واحد أو شعب واحد. إن الانصراف عن هذا المبدأ القيم هو الذي يؤدي بالعالم إلى ما يتعرض له من دمار. ولو أن الدول الكبرى طبقت تعاليم القرآن هذه لقضت على هذا التحاسد والتباغض المتفاقم بين الشمال والجنوب، وبين الشعوب والطوائف والأفراد. لقد أسس الإسلام نظامه الاقتصادي على قاعدة أن كل الأشياء في هذه الأرض مخلوقة لبني نوع الإنسان.. للبشرية جمعاء.

والملكية الفردية في الإسلام تخدم هذه القاعدة، فهي لا تحرم سائر المستحقين منافعها، بل إن المالك يستخدم ما يملكه فيما يعود عليه وعلى المجتمع البشري بالنفع والخير.

ولقد حكمت هذه الآية الكريمة حكمًا بديعًا في الجدل الجاري بين الأديان حول حقيقة الدنيا. فالهندوس يرون الحياة الدنيا نجسا تكون النجاة منها بالنفور منها، وعلى ذلك يؤسسون اعتقادهم بالتناسخ، والخلاص عندهم يعني النجاة من الآلام.

والمسيحية تزعم أن الدنيا رجس يجب التخلص منه كما جاء في الإنجيل "فاذهب وبع أملاكك، أعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني" (متى١٩: ٢١).

والبوذية تكره الأهواء والرغبات الدنيوية، والنجاة عندهم بالخلاص من هذه الرغبات. والزرداشتية تقسم الدنيا إلى شر وخير، وتزعم أن لها الهين: خالق للخير وخالق للشر.

فالديانات كلها ترى حقيقة الدنيا على أنها بلاء مكروه ينبغي التجنب عنه. ولكن الإسلام واليهودية لا يريان الدنيا عقابا. والفرق بين الإسلام واليهودية أن اليهودية اتخذت الدنيا غاية تتوخاها، والإسلام هو الدين الوحيد الذي يعلن بأن الإنسان قد خلق في هذه الدنيا لا ليفر منها.. وإنما ليستخدمها الاستخدام الحسن.. لتكون وسيلة للحياة الآخرة. والعجيب أننا اليوم نرى أولئك الذين تقول دياناتهم بأن الدنيا نجس وشر يعضون عليها بالنواجذ.

وفي قوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات﴾ إشارة إلى أن الله بعد أن جعل كل ما في الأرض ذا نفع للإنسان، أعد للمنتفعين به انتفاعا صحيحا سبع درجات من الرقي، وهم الذين يحظون بتلك المراتب العليا. والمراد بسبع درجات من الرقي درجات كثيرة، لأن عدد السبع يدل على الكثرة أيضًا.

وقوله: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ يشير إلى أن الله تعالى بعد أن جعل كل ما في الأرض نافعا للبشر.. لا بد أن يضع أيضًا نظاما يجازي به وينعم على من استعمل هذه الوسائل الأرضية الاستعمال الأمثل طبق أوامره تعالى.

وهذه العبارة دليل ناصع على صدق الإسلام. إن القرآن، كتاب الإسلام.. هو كلام الله تعالى ولا يناقض العلوم الطبيعية التي تشرح فعل الله تعالى في هذا الكون. وما دام القول والفعل من الله تعالى.. فلا يمكن أن يحدث بينهما تناقض. لأن الله عليم بدقائق خلقه ما ظهر منها وما بطن. إن غاية العلوم الطبيعية إدراك خواص الأشياء، ومعرفة تلك الخواص ستوطد دعائم صدق الإسلام ولن تضره شيئا. وإذا كانت الديانات الأخرى تنظر نظرة عداء إلى تقدم العلوم وتتوجس منها خطرا يهدد بهدم بنيانها، فإن الإسلام على عكس ذلك يزداد طمأنينة وسرورا.. لأن كل ما يقدمه العلم دليل على صدق الإسلام.

وبعد أن أشار الله تعالى بقوله: ﴿فسواهن سبع سماوات﴾ إلى كثرة الدرجات الروحانية وتعددها، رمز إلى أن سنة الارتقاء كما هي جارية في العالم الجسماني، كذلك هي سارية في العالم الروحاني أيضًا، وهو منقسم إلى عدة أقسام، والقسم الأخير منها هو الذي ظهر فيه سيدنا ومولانا محمد ﷺ. وفي حديث الإسراء الذي رأى فيه النبي ﷺ آدم عليه السلام في السماء الأولى، ورأى نفسه في السماء السابعة إشارة إلى أن آدم هو الحلقة الأولى في سلسلة ارتقاء العالم الروحاني، وأن محمدا هو الحلقة الأخيرة منها. وكأن العالم الروحي الذي كانت بدايته بآدم عليه السلام اكتمل في شخص النبي ﷺ.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

قال: القول يستعمل على أوجه؛ أظهرها أن يكون للمركب من الحروف، المبرَز بالنطق، مفردا أو مركبا؛ الثاني: يقال للمُتَصَوَّر في النفس قبل الإبراز باللفظ؛ الثالث: للاعتقاد نحو " فلان يقول بقول أبي حنيفة "؛ الرابع: يقال للدلالة على الشيء نحو قول الشاعر: " امتلأ الحوض وقال قطني" (المفردات). وهناك أمثلة أخرى في اللغة لاستخدام القول لبيان حقيقة حادث، نحو قول الشاعر:

قالت له العينان سمعًا وطاعة وحـــدرتا كالدر لمَّا يُثَقَّبِ

وقول آخر:

قالت له الطير تقدَّم راشـــدا إنـــك لا ترجع إلا حامـــدا

(اللسان)

الخامس: يقال للعناية الصادقة بالشيء؛ السادس: في الإلهام نحو قوله تعالى "قلنا يا ذا القرنين" (المفردات).

وقال الثعالبي: "ومن سنن العرب أن تعبر عن الجماد بفعل الإنسان كما قال الراجز: امتلأ الحوض فقال قَطْني" (فقه اللغة) .

الملائكة: جمع مَلَك، أصله مألَك، وقيل هو مقلوب من ملْأَك، والملأك والأُلوك هو الرسالة، ومنه، أَلِكْني أي أَبْلِغْهُ رسالتي.

وقال: إنه من المِلْك. والمتولي من الملائكة شيئا من السياسات يقال له مَلَك، ومن البشر يقال له مَلِك (المفردات).

وقال البعض إن المَلَك من لأَك، يقال: ألاكه إلى فلان إلاكَةً: أبلغَه عني رسالة. وهذا يعني أن المَلَك كان في الأصل مَلأَك ثم حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال. (الأقرب). ألاك الشيء: أداره في فمه.

ولاك الفرس اللجامَ: عضَّ عليه (التاج). وكأن الرسول يلوك الرسالة في فمه، أي يراجعها حتى لا تفلت منه. ومنه سُمي الرسل الذين يأتون برسالة الله إلى الأنبياء ملائكة. فالملائكة اسم لكائنات تنزل برسالة الله إلى الناس، وتنفذ إرادته في الدنيا؛ أو اسم لكائنات شديدة القوى.

خليفة: الخليفة جمعه خلفاء: يعني الإمام الذي ليس فوقه إمام؛ الذي يخلف ويقوم مقامه؛ السلطان الأعظم أو الملك أو الحاكم. والخلافة: الإمارة؛ النيابة عن الغير.. إما لغيبة المنوب عنه أو لموته أو لعجزه أو لتشريف المستخلف. والمعنى الشرعي للخلافة الإمامة. (الأقرب)

نسبِّح: سبَّح الله وسبح له: نزَّهه من العيوب والنقائص. وسبَّح: صلى؛ قال سبحان الله. (الأقرب).

والتسبيح هو التنزيه لله من الصاحبة والولد؛ وقيل تنزيه عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به. وجماع معناه: بُعده تبارك وتعالى عن أن يكون له مثل أو شريك أو ندّ (اللسان). ومعنى ﴿سبحانك اللهم﴾: أنزِّهك وأبرِّئك يا رب من كل سوء؛ و﴿سبحانك﴾ مصدر يقوم مقابل الفعل؛ قيل: دل على التنزيه من جميع القبائح التي يضيفها إليه المشركون. وفي (العجائب للكرمني) أن ﴿سبحان﴾ مصدر سبَّح.. إذا رفع صوته بالدعاء والذكر. والتسبيح قد يطلق ويراد به الصلاة والذكر والتحميد والتمجيد. وسميت الصلاة تسبيحا لأن التسبيح تعظيم الله وتنزيهه من كل سوء (التاج).

والسبح: المر السريع في الماء أو الهواء، والتسبيح تنزيه الله تعالى، لأن أصله المر السريع في عبادة الله. وجُعل ذلك في فعل الخير كما جعل الإبعاد في الشر، فقيل أبعده الله! وجعل التسبيح عاما في العبادات قولا كان أو فعلا أو نية (المفردات).

نقدس: التقديس التطهير. ومعنى قوله تعالى ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ أي نطهر الأشياء ارتساما "أي امتثالا" لك. وقيل نقدسك أي نصفك بالتقديس "المفردات". والفرق بين السبُّوح والقدّوس، وهما من أسماء الله تعالى، أن السبوح هو الذي نتزهه عن كل سوء؛ والقدوس هو المبارك ذو

البركة، الجامع للمحاسن كلها، والطاهرُ أي الطاهر بنفسه ويُطهر الآخرين (اللسان). فالفرق بين التسبيح والتقديس، أن التسبيح فيه تنزيه أما التقديس فيجمع التنزيه والتعظيم.

التفسير: يرى بعض المفسرين أن الخليفة المذكور هنا هو آدم عليه السلام، سماه الله خليفة لأنه قُدِّر له أن يكون نبيًّا مُنفذا لأحكام الله تعالى. وإني أرى هذا الرأي، ولكني لا اتفق مع من قال بأن الملائكة كانوا سكان الأرض قبل آدم.. لأنه لا سند لذلك. وكذلك لا أتفق مع القول بأن الجن من غير البشر هم السكان السابقون، فهو قول واهٍ وزعم لا دليل عليه. ولم تكن تسمية آدم خليفة بسبب مجيئه بعد الملائكة أو الجن، بل هذا سبب باطل واهٍ، إذ إن الخليفة يصلح لأن يطلق على كل مخلوق يخلف مخلوقا جاء قبله.. والحال أنه لا يملك أحد تحديد بداية الخلق.

كما لا يصح عندي القول بأن الخليفة هم ذرية آدم من بعده، لأن القرآن عندما أراد ذكر خلافة الشعوب بعد آدم استخدم صيغة الجمع مثل قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ﴾ (الأنعام:١٦٦)

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (فاطر:٤٠)

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (يونس:١٥)

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ﴾ (يونس:٧٤)

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ (الأعراف:٧٠)

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ (النمل:٦٣)

بعد أن أشار القرآن إلى اصطفاء المصطفى ﷺ وبعثته إلى الناس بالقرآن الكريم الذي لا ريب فيه، وهدى للمتقين، من عند الله تعالى.. ذكر اصطفاء الله تعالى لآدم.. فدلَّ بذلك على أن نزول الوحي السماوي وبعْث الأنبياء ليس من البدع، بل إنه سنة مطّردة منذ خلق الإنسان على هذه البسيطة، ولا يزال مستمرا دون انقطاع، وأن آدم هو الإنسان الأول، ومعه بدأ نزول الوحي السماوي، وأن الله تعالى لم يترك الإنسان مهملا مضيعا أبدا، بل ما زال قائما على هدايته منذ البداية.

وبذكر قصة آدم مع الملائكة يقدم القرآن درسا مفيدا للناس فيما يتعلق بالوحي والنبوة، وهما من أمور الغيب. فقد أشار الله تعالى بتساؤل الملائكة إلى حقيقة أن الناس عادة، قبل بعث نبي، لا يدركون الحاجة إلى الوحي وإرسال نبي إلى أن يبعثه الله، فيتم رسالته، ويظهر للناس مدى حاجتهم إليه، وذلك بسبب ما يحدث من تطورات تدفعهم إلى الاعتراف بأنه لولا ظهوره لظلت الدنيا محرومة من تطور نافع. إن تساؤل الملائكة يشير إلى أنه حتى أمثال الملائكة لا يستطيعون إدراك حقيقة ذلك التطور العظيم الذي يحدث في الدنيا بعد بعث نبي من الأنبياء، فما بالك بالأشرار والسفلة من الناس. فمن لوازم الحكمة ألا

يخالف المرء أمرا قبل وقوعه؛ إذا لم يمكن له الإيمان به، فعلى الأقل أن لا يعارضه، بل ينتظر حتى يتم المبعوث مهمته، فإن يكُ صادقا تحقق صدقه بعمله، وأن يكُ كاذبا تبين كذبه بعمله. وقد ذكر القرآن هذا المعنى على لسان واحد من قوم فرعون فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ (غافر:٢٩). وقال: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ *﴾ (النحل: ٢،٣)

وذِكرُ الملائكة في هذا الوضع إشارة إلى دورهم في مهمة المبعوث السماوي. يخبرنا القرآن الكريم.. وسائر الأديان تؤيده في ذلك، أن تدبير أمر هذا العالم يتم بإذن الله تعالى بواسطة الملائكة.. فهم مأمورون بإتمام الأعمال المختلفة.. فهناك ملائكة لتنفيذ أوامر الموت، وملائكة موكلة بالكواكب وحركاتها، وملائكة لتدبير الأمطار والرياح. وفي الأمر الإلهي للملائكة بجعل آدم خليفة ثم السجود له.. إشارة إلى أن الملائكة مكلَّفون بتأييد آدم في مهمته كخليفة أو نبي، ولذلك فإن فلاح النبي في مهمته أمر حتمي؛ إذ تسانده الملائكة المدبرون لنظام هذا العالم. ونرى في حياة الأنبياء من الشواهد ما يدل على هذه الحقيقة. ففي نجاة نوح من الطوفان، وسلامة إبراهيم من النيران، واجتياز موسى البحر وهلاك فرعون؛ ونجاة عيسى من الصليب، وانتصار "رام شندر جي" رغم إحداق أعدائه به، وغلبة "كرشن جي" على أعدائه الجبابرة، وتغلب "زرداشت" على أعدائه الأشداء، وفوق كل ذلك كله وأعظم منه.. مبارزة الرسول ﷺ لجميع العرب وهو وحيد منفرد، وانتصاره عليهم جميعا بصورة خارقة.. في تلك الحوادث كلها معجزات بينات لا ينكرها إلا العميان المعاندون، ودلالة على صدق هذه الحقيقة، وتذكير للناس بأن الملائكة الذين أُمروا بمساندة آدم مأمورون أيضًا بمساندة محمد ﷺ في مهمته، وأنهم سوف يحدثون تطورات حاسمة يترتب عليها الانتصار النهائي لرسول الله ﷺ بالرغم من كل العداء.

وتشير الآية أيضًا إلى أن آدم خلق على هذه الأرض، وكانت مهمته في هذه الدنيا، وعلى هذه الأرض ذاتها.. وذلك بخلاف ما يزعم البعض من أن آدم أُدخل الجنة التي يدخلها الصالحون بعد موتهم. ومما يدعوا للتعجب أن الله عز وجل يقول ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾، ومع ذلك يصرّ البعض على دخول آدم في الجنة الموعودة في الآخرة. وقد قال بعضهم بأن الله خلق آدم أولا على الأرض ثم أدخله الجنة.. ولكن الآية لا تسيغ هذا القول، لأنها صريحة في جعل الخليفة في هذه الأرض. ومن البين أنه يستخلف في الأرض من أجل هدف وغاية، ولا يتحقق ذلك بدخول آدم في الجنة.

وآيات القرآن الأخرى تدحض هذا الزعم فمثلا: يقول تعالى عن الجنة الموعودة بأنها ﴿لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾ (الطور:٢٤).. ولكن الجنة التي دخلها آدم دخلها معه الشيطان، وحرضه على معصية الله تعالى.

ثم يصف الله الجنة بقوله ﴿لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾(الحجر:٤٩).. لكن آدم أُخرج من الجنة. وكذلك يقول عن الجنة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ (فصلت:٣٢)، ولكن آدم أُخرج من الجنة بسبب اقترابه من الشجرة. وجاء في وصف جنة الآخرة ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ (الزمر:٧٥)، ولكن آدم أمر بألا يقرب الشجرة.

تبين مما سبق أن جنة آدم عليه السلام كانت على هذه الأرض، لأنه كان خليفة لأهل هذه الأرض، فكان محتمًا بقاؤه فيها حتى الموت.

وقد اعترض بعض الناس على قوله ﴿وإذ قال ربك للملائكة..﴾، فقالوا:

١. لقد استشار الله تعالى الملائكة، فهل يحتاج الله عز وجلّ إلى استشارة؟

٢. ارتاب الملائكة في حكم الله تعالى بقولهم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾.. فهل لهم حق الاعتراض على حكم الله تعالى؟

٣. لقد تحقق قول الملائكة وأفسدت ذرية آدم في الأرض.

وقبل أن أجيب عن هذه الأسئلة ينبغي أن نفهم معنى كلمة "قال". إن هذه الكلمة التي ترددت في الآية لا تعني أن الله عز وجل قد دعا الملائكة والناس إلى مجلس، ثم وجه الخطاب إلى الملائكة؛ وإنما المراد منها التعبير عن المُتَصَوَّر في النفس قبل الإبراز باللفظ، كما جاء في شرح الكلمات. وقد ورد هذا الأسلوب في القرآن الكريم، كما في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (المجادلة:٩). وهي أيضًا تدل على لسان الحال كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت:١٢).

فليس من الضروري أن يكون القول الوارد في الآية الكريمة قد تم بصورة ظاهرة، وإنما أريد بهذا الحوار تصوير لما جرى على لسان حال كل شيء من الاستجابة لحكم الله تعالى.

وإذن فإن ما تحكيه آيتنا من قول إما مناقشة بلسان الحال، أو أنه تصوير للوحي السماوي الذي أنزل على الملائكة، وهذا ما أرجِّحه. وكل ما قال الله تعالى للملائكة إعلان بقراره تعالى لا يُمتُّ إلى الاستشارة بصِلة.. لأن سياق الآية وألفاظها لم تذكر الاستشارة.. لا صراحة ولا ضمنيا، فالآية تقول: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾، فليت شعري! من أين استخرج المعترضون معنى الاستشارة؟ إن الله تعالى أخبر ملائكته بالأمر كي ينشط كل واحد منهم في نطاق عمله لمناصرة آدم عليه السلام، ويدرك الأمر الموجه له ويتفهم نواحيه الغامضة. فإذا استفسر عن شيء منها فليس ذلك عن اعتراض، وإنما استزادة من العلم. ولا أدل على براءة الملائكة من تهمة الاعتراض من قولهم: ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾.

ومن زاوية أخرى يمكننا أن نأخذ هذه العبارة كتساؤل شبيه بالاعتراض. ذلك أن آدم كما كان نائبا لله تعالى، كذلك كان هناك أناس شبيهون بالملائكة.. تجوز تسميتهم ملائكة. فيمكن أن يكون قد خطر ببال هؤلاء أنهم ما داموا يعبدون الله عز وجل بقدر ما أتوا من العقل.. فأي حاجة هناك لبعث إنسان بالشريعة؟ وفي ضوء هذا المعنى تعتبر هذه العبارة ردًّا على ما خطر ببال هؤلاء من اعتراض. فكلما يبعث الله نبيًّا فإن أصحاب الصلاح في الظاهر يفكرون بنفس هذا الأسلوب. فمن كان منهم ذا تقوى حقيقية يفطن لخطئه، ويؤمن بإمام زمانه، وأما اللذين تنقصهم التقوى الحقيقية الكاملة فتزل قدمهم، ويخرجون من صفوف الملائكة إلى صفوف الأبالسة.

هذا المشهد يتكرر في زمن كل نبي.. ففي زمن النبي ﷺ أيضًا نجد شخصا اسمه زيد، وكان يدَّعي أنه يتبع ملة إبراهيم حنيفا، ويدعو العرب قبل بعثة النبي إلى عدم الإشراك بالله تعالى. ومرة اجتمع على الأكل مع النبي، فرفض الأكل معه بحجة أنه لا يأكل مع المشركين. فأجابه النبي ﷺ بأنه لم يقع في الإشراك بالله قط. وبعد فترة عندما ادعى النبي ﷺ بأنه بعث رسولا من الله تعالى لم يوفق هذا الرجل إلى التصديق به، وإنما قال: لو كان الله باعثا نبيا لبعثني أنا الذي حاربت الشرك طيلة الحياة. (البخاري، كتاب المناقب، مناقب الأنصار؛ وسيرة ابن هشام)

فانظروا كيف أن هذا الرجل الذي كان قبل بعثة النبي ﷺ بمثابة ملَك من الملائكة بين العرب.. رفض أن يؤمن به ﷺ، واعتبر بعثته عبثا. وأمثال هؤلاء يوجدون في عصر كل نبي، ورغم أنهم يكونون فيما يظهر ظلالا للملائكة.. إلا أنهم يدخلون في الأبالسة بالاعتراض على بعث إمام زمانهم.

أما المسألة الأخيرة.. من حيث تحقق قول الملائكة وعدم تحقق قول الله تعالى.. فهي أيضًا ناشئة عن تفكير قاصر، فالله تبارك الله تعالى لم يقل بنفي الفساد وسفك الدماء، بل إن مفهوم سفك الدماء والفساد متضمن في إعلان بعث ﴿خليفة﴾. يقول الله صحيح أن بعث آدم كخليفة يعني أن أفعال الناس سوف تقاس بمقياس الشريعة وسوف تعد بعضها فسادا وسفكا للدماء، ولكنه مع ذلك سيحقق غاية عظيمة لا يمكن أن يحققها أحد من سائر المخلوقات. ويؤكد هذا قوله تعالى ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾.. حيث لم يخطئهم في دعواهم، بل قال: هناك شيء أعرفه ولا تعرفونه. وهكذا وجد الملائكة الجواب على سؤالهم كما تحقق ما أخبرهم الله به.

ورب سائل عن قوله تعالى: ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾.. أيتّصل هذا القول بآدم، أم ببعض من بُعث إليهم، أم بذرية آدم المقبلة؟

والجواب عن ذلك أن هذه الجملة تتصل بهؤلاء الثلاثة جميعا. أما علاقتها بآدم فلأنه أول الأنبياء، وعلى يده جاءت الشريعة قيدًا على الإنسان. ومن البين أن من يتولى أمر تطبيق النظام قد يعمد أحيانا

إلى سجن بعض الأفراد، وقتل المجرمين منهم.. توطيدا لدعائم النظام، وقد يفرض الضرائب عند الضرورة. وهذه التصرفات قد تبدو بادئ النظر نوعا من الفساد عند من لا يعرف مصالح النظام، وعندئذ يتساءل متحيرا: كيف يجوز الاستيلاء على أموال الناس بالإكراه؟ وكيف يسجن الأحرار ويقتل الأحياء؟ ولكن لا يمكن أن يقوم بتثبيت قواعد الأمن من دون فرض الضرائب وسجن المجرمين وقتل القاتلين.

وأما علاقة ذلك القول بمن بُعث إليهم آدم وبذريته المقبلة، فذلك لأن حدود الشريعة هي التي تميز المسيء من المحسن، والمذنب من البريء. إن الحيوان يفترس ويقتل ويلدغ ولا يُعدّ مفسدا، لأنه محروم من العقل الذي يفرق بين الخير والشر، ولا يخضع لحدود الشريعة. وهكذا كان البشر قبل آدم، فإذا بلغ الإنسان من العقل مبلغًا يؤهله لاتباع الشريعة.. كان عندئذ التمييز بين المفسد والمصلح، وأصبح منذ ذلك الوقت مطالبا على لسان آدم ألا يعتدي على حق غيره ولا يفسد في الأرض، وأصبح الحاكم المنفذ للشريعة مسئولا عن إعطاء كل ذي حق حقه. ومن خالف الشريعة فهو المفسد أو سافك الدماء.. الأمر الذي لم يكن معروفا قبل الشريعة.

ومن الطرائف الغريبة أن الإنجيل أشار إلى هذا المعنى ولكن بصورة ناقصة في رسالة بولس إلى رومية. ".. لأن الناموس ينشئ غضبا، إذ حيث ليس ناموس ليس أيضًا تعدٍّ.. على أن الخطية لا تحسب إن لم يكن ناموس" (صح:٤،٥). ولقد استدلت المسيحية بهذا المعنى الناقص استدلالا خاطئا إذ ظنت أن الشريعة محض عقاب، وأن المسيح الناصري هو الذي نجى الإنسان من هذا العقاب. وهكذا تغافلوا عن أنَّ الخطيئة سم. وهي ليست سما لأن الشريعة حسبتها كذلك، بل لأنها في حد ذاتها سم. ولذلك عدها الله تعالى معصية. إن وصف السم بالسمية لا يزيد من مضرته، بل إنه يفتح أمام الإنسان أبواب اجتنابه والنجاة منه. إن الطفل الصغير محروم من الوعي والشعور الصائب، ولذلك كانت أفعاله حرة مطلقة من المسؤولية، فإذا فعل ما يؤذيه أو يؤذي غيره، فليس بمسؤول عن فعله، لا لأن ما فعله ليس بشرّ.. وإنما لأن الطفل لا يقدر على التمييز بين الخير والشر. وعندما يبلغ الطفل مبلغ الإدراك والفهم الواعي يُحكم على فعله بالصواب والخطأ، وعلينا عندئذ أن نُعلمه الأوامر والنواهي.. أي ماذا يفعل وماذا يترك، وعليه أن يعمل وفق ما نعمله.. فإن فعل أصاب، وإن خالف أخطأ.

وقصارى القول: إن سؤال الملائكة يعني: أن حالة البشر سوف تتغير بعد نزول الشريعة وتعيين خليفة، وعندئذ سيكون منهم مفسدون وسفاكو دماء طبقا لهذه الشريعة، وما كانوا من قبل الشريعة يدانون على مثل هذه الأفعال.. فاستفسارهم هذا في محله ويحتاجون شرحه وبيانه. ولم تكن الحكمة الإلهية ترمي إلى إدانة الإنسان ووصمه بالإجرام، وإنما كان الفكر الإنساني قد بلغ عندئذ من التقدم

والدنو من الكمال بحيث تترك أفعاله هذه أثرا سيئا في قلبه، فلذلك أراد الله تعالى أن يترل على البشر وحيه، فيصطفي آدم من بينهم خليفة ليقود البشرية إلى مكانتها المرموقة، ويسعى إلى تلك المثل العليا التي أصبح الإنسان أهلا لها.

وهنا نقطة جديرة بالذكر.. فكل ما قاله عز وجل عند استخلاف آدم قول صحيح تماما.. وتساؤل الملائكة أيضًا تساؤل صائب.. والاختلاف بينهما إنما هو من ناحية وجهة النظر فقط. فالله تعالى كان يرى من استخلاف آدم تجليا عظيما لظهور سيدنا ومولانا محمد ﷺ.. فآدم هو المرحلة الأولى لوضع البشرية على طريق الكمال.. الذي يصل إلى ذروته في شخص خاتم النبيين ﷺ، بينما كانت الملائكة تخشى على البشرية من أجل مظاهر الشر المصطبغة بصبغة أبي جهل وأمثاله.

إن تأسيس الخلافة سيكون مدعاة لإنزال العقاب بطائفة معدودة من المفسدين والقاتلين، ولكن هناك طائفة أخرى قدر لها أن تتفوق على الملائكة أنفسهم، وتنال محبة الله والقرب منه. وهذه الطائفة الناجحة هي الغاية من خلق هذا المجتمع الإنساني المنظم. ولوجود هذه الطبقة الممتازة من البشر.. لا يجرؤ أحد على الادعاء بفشل النظام البشري، بل إن كل واحد من أفراد هذه الفئة العليا لجدير بأن يُخلق هذا النظام من أجله. وأعلاهم شأنا وأحقهم بذلك.. هو محمد ﷺ، الذي خاطبه الله تعالى فقال له: "لولاك لما خلقتُ الأفلاك".

هذا الحديث القدسي ورد في حق المصطفى ﷺ، وقد تلقى أشخاص كمَّل إلهامات مماثلة. وهؤلاء الأبرار الكاملون لدليل على أن مشيئة الله هي الحكيمة، وأنه لم يكن لمخاوف الملائكة أي وزن.

وقول الملائكة: ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ يُبطل الظن باعتراضهم على الله تبارك وتعالى، فهم الحامدون المقدِّسون، وما كان لحامد مقدس لله أن يعترض على أمر منه عز وجل.. إنما هم يتساءلون عن ذلك لفهم حقيقة الأمر لا غير.

ويمكن أن يكون لهذه العبارة معنى آخر، فالملائكة يعبرون بقولهم هذا عن الشك في كمال عبادهم لله قائلين: إننا نحمدك ونسبحك ونقدس لك بما في وسعنا، ولعل ضعفًا قد حدث في عبادتنا هذه، فاقتضى ذلك خلق كائن آخر يكون ظلا لك. ومن ناحية هذا المعنى لا يكون في قول الملائكة مظنة الاعتراض، وإنما هو مظهر لطيف رائع لخشية الله تعالى، وهو الأجدر بشأن المقربين عنده عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ جواب مجمل كافٍ لإقناع أمثال الملائكة المقربين.. لأنهم يعرفون عظمة الله عز وجل. فلما قال تعالى: إني أعلم ما لا تعلمون من المصالح العظيمة في خلق آدم أيقنوا بأنه هو الحق. ثم أراد الله تعالى أن يبين ذلك للأجيال المقبلة من بني آدم، ولذلك أورد جوابا مفصّلا كما سنرى في الآيات التالية.

وجدير ذكره أيضًا أن القرآن الكريم يتميز عن الكتب السماوية الأخرى بأنه يجمع بين التسبيح والتحميد والتقديس. إن التسبيح يتضمن التنـــزيه عن العيوب، وأهل السمو لا يقنعون بصفات التنزيه، لأن الكمال يتطلب الصفات الإيجابية الحقيقية. إن نفي بعض العيوب لا يعطي الصورة الحقيقية، ولكن ذكر الصفات الثابتة الإيجابية هو الذي يجلي الحقيقية. فمثلا لو قلنا إن الله تبارك وتعالى ليس بمادة، وأنه لا يجوع ولا يعطش، ولا يأخذه نوم ولا يطرأ عليه موت، ولا يخضع للأهواء.. تبين للسامع من قولنا هذا أن الله تعالى مختلف عن سائر الموجودات بعض الاختلاف.. ولكن لا يستبين له من ذلك عظمة الله وكبرياؤه بحيث يقدره حق قدره.

لقد اهتمت الديانات البدائية بناحية التنزيه والتسبيح، لأن العقل الإنساني لم يكن قد بلغ عندئذ مبلغًا من كمال النشوء بحيث يدرك ناحية الحمد والتقديس. ولكن القرآن الكريم لم يُولِ الصفات الإلهية التنزيهية اهتماما كبيرا، وإنما أعطى الناحية التقديسية أعظم الأهمية، وبها يقدم للناس صورة واضحة جلية للصفات الإلهية لم يسبق لها مثال في الوضوح والشمول والتمام، بحيث يعرف الإنسان عن ربه ما يملأ قلبه حبًا وإجلالا لصاحب الحمد المطلق والقداسة التامة. وعلى سبيل المثال يقول القرآن الكريم عن الله تعالى أنه: ﴿لا يَمُوت﴾ (الفرقان:٥٩)، ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ (الإخلاص:٤)، ﴿لا يُطعَم﴾ (الأنعام:١٥)، ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ (البقرة:٢٥٦).

إذا تأملنا هذه الصفات السلبية وجدناها لا تتحدث في الحقيقة عن عظمة الله، وإنما هي صفات تبطل معتقدات الشرك الشائعة في النصارى وأمثالهم من المشركين، الذين كانوا يصفون الله تعالى بصفات البشر. لقد صرح القرآن في هذه الآيات أن الآلهة التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، وتولد من بطون الأمهات، وتتزوج وتنجب، وتنام ويغلبها النعاس من التعب.. ليست من الله تعالى في شيء.. إنه متعال عن كل ذلك علو كبيرا.

أما صفته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى:١٢)، فهي أيضًا ليست سلبية محضة، وإنما تبين أن الله تعالى ذكر لنا في القرآن الكريم صفاته الإيجابية الذاتية بصورة تقربها إلى فهمنا، ولكن علينا ألا ننخدع بها ونحسبها تشابه صفات الإنسان، فإنها في الحقيقة مختلفة عنها تمام الاختلاف. إن الله تعالى متكلم، ولكنه لا يتكلم بالكيفية التي يتكلم بها البشر بحيث يحتاج إلى لسان وحلق وشفاه وما إلى ذلك من أدوات النطق البشري. وهو يسمع ويبصر، ولكنه ﴿ليس كمثله شيء﴾ في سمعه وبصره. وهكذا يعرفنا القرآن الكريم بالصفات الإلهية الذاتية مع بيان اختلافها عن الصفات البشرية.

إن قول الملائكة: ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ إشارةٌ إلى ما يراه ذوو العرفان الكامل من عباد الله المقربين. إنهم لا يرون الله تعالى عن طريق صفاته التنزيهية السلبية، بل يتشرفون بعرفانه عن طريق

صفاته الحقيقية الإيجابية. كما أنه إشارة أيضًا إلى أن القرآن الذي يؤكد على وجود هذه الصفات الإيجابية الحقيقية.. سيكون ذريعة إلى خلق المظاهر الملائكية التي تهتم بالحمد والتقديس مع اهتمامهم بالتسبيح، وأنها ستقرب الوجود الإلهي إلى عباد الله بصفاته المتصلة بتجلي قدرته تعالى، ولن يقتصر اهتمامها على صفاته التنزيهية السلبية التي تجعله، جل وعلا، كما لو كان وجودا خفيا متواريا منقطعا عن عباده.

والحق أن الاتصال الكامل بالله عز وجل لا يمكن إلا بالتفكر في صفاته الإيجابية والانتفاع بها، ومن يتمسك بالتسبيح فقط فإنما يعترف بأن لله تعالى وجودا أسمى؛ لكن الذي يسبح بحمده فإنه يراه إلها حيا فعالا، ويُحظي به الآخرين أيضًا.

لقد علم الله عز وجل أمة الإسلام بقول الملائكة هذا درسا عظيما، فعلى المسلمين ألا يكتفوا بتنزيه الله تعالى بالصفات السلبية، بل عليهم أيضًا أن يذكروه بالصفات الإيجابية كي يستفيدوا منها ويحمدوه بها، ويكونوا بذلك الجواب العملي على تساؤل الملائكة، والبرهان الفعلي على أهمية خلق البشر بتفوقهم في التسبيح والحمد، ويصبحوا شهادة حاسمة على كمال حكمة الله عز وجل.

بعض مفاهيم الآية على ضوء آيات أخرى

أولا: إن آدم عليه السلام هو الحلقة الأولى من سلسلة النظام الإنساني، بدأ الله به نزول الوحي السماوي إلى الناس حسبما ورد في القرآن الكريم. وأود أن أكشف الغطاء عن أن آدم المذكور في هذه الآية لم يكن أبا البشر الذي بدأ به خلق الإنسان، فالقرآن الكريم لا يصدق هذا الزعم، ولا يقول بأن الله تعالى خلق آدم دفعة واحدة، ثم خلق زوجه حواء من ضلعه.. بل إن ذلك القول مأخوذ من التوراة وغيرها من الكتب، وعزوه إلى الإسلام افتراء عليه. جاء في التوراة: "وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرا وأنثى خلقهم، وباركهم الله، وقال لهم: أَثمِروا وأَكثِروا واملئوا الأرض.. وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقا، ووضع هناك آدم الذي جبله.. وقال الرب الإله: ليس جيدا أن يكون آدم وحده، فأصنع له معينا نظيره.. وأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحما، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم، فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة، لأنها من امرئ أخذت". (سفر تكوين،صح ١ و٢)

وتقول الكتب الهندوسية إن خلق الإنسان تم بصورة زوجية، إما بانشطار الإله إلى شطرين عند البعض، أو بانقسام "براهما" عند الآخرين، ومنه انتشر النوع الإنساني.

إن قصص خلق الإنسان هذه جاءت بأسلوب المجاز، ويبدو أن الكتاب المتأخرين ألحقوا بها زيادات هنا وهناك من عند أنفسهم فجاءت بهذه الصورة الأسطورية. ولكن هناك تشابها بين مختلف القصص الواردة في كتب الهندوسية، وتتفق في خطوطها العامة.

وقام "دارون" أحد علماء وفلاسفة العصر الحديث، بتقديم النظرية القائلة بنشأة جرثومة الحياة على الأرض، ثم أخذت تنشأ وتنمو بعد عدد من التطورات المتتابعة عبر زمن طويل إلى أن وصلت إلى طور الحيوانات المتنوعة، وأخيرا وصلت إلى نوع أشبه ما يكون بالقرد، ومن هذا النوع الحيواني تطور وجود الإنسان. فطبقا لهذه النظرية، مثّل خلق الإنسان الحلقة الأخيرة من نشوء بذرة الحياة، و لم يخرج إلى الحياة دفعة واحدة.

ولقد حاول بعض العلماء الألمان والفرنسيين المعاصرين تصوير المعتقدات الهندوسية والبابلية القديمة بقوالب علوم طبيعية.. فقالوا إن وجود الله هو الذي نشأ وتطور إلى وجود الإنسان، أو بعبارة أخرى: إن مبدأ النواميس الأزلية هو الذي تحول إلى صورة الإنسان.. الذي هو آخر طور من هذا الارتقاء المطرد.

أما القرآن فقد اختار طريقا بديعا لكشف أسرار خلق هذا الكون وإزالة الستار عن حقائقه الغامضة.. يختلف عن سائر هذه الآراء. يتبين من تعاليم القرآن أن سنة الارتقاء والتطور جارية في العالمين الروحاني والمادي دون مراء، وأن العالم المادي قد بلغ منتهى أوج كماله بعد تطورات ارتقائية طويلة، وكذلك وصل العالم الروحاني إلى قمة كماله بعد أن طوى مراحل الارتقاء الطويلة. ولكن القرآن الكريم لا يسلم بأن الإنسان كان آخر حلقة من سلسلة الارتقاء في الحيوانات المختلفة، وإنما يقول بأن التطور الإنساني مستقل بنفسه ومنفصل عن غيره من التطورات، وأنه ليس مجرد مظهر صادف التطور الحيواني، ويتبين ذلك من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (نوح:١٤ – ١٩).

يتبين من هذه الآية ما يلي:

١. تدل كلمة ﴿أطوارا﴾ على أن خلق الإنسان قطع أحوالا وحدودا ومراحل عديدة قبل أن يكتمل.

٢. أن خلق الإنسان بدأ قبل خلق السماوات والأرض، وأن مراحله الأخيرة كانت من الأرض بعد ذلك.. أي أن مراحل الخلق الإنساني بدأت على صورة ما حينما كانت السماء والأرض مجرد دخان، ثم تطورت هذه الصورة فيما بعد إلى أن اكتملت صورة الإنسان على الأرض بعد خلق السماوات والأرض.

٣. أنه بعد أن تجمعت المادة الدخانية وتكونت منها السماوات والأرض، دخلت مرحلة جديدة في خلق الإنسان، فبرز فيها وجوده من بطن الأرض إلى ظهرها كمثل النبات الضعيف الذي لا يتحرك ويستمد غذاءه من رطوبتها، ثم أخذ يتحول شيئا فشيئا إلى صورة وجود متحرك.

٤. أن ما يجري على الإنسان بعد موته لدليل على صدق ما يقرره القرآن بهذا الشأن. فالجسد يتحول إلى تراب، الأمر الذي يشهد على أن بدء الخلق كان من الطين. ثم يقول: إن موت الإنسان وتحوله إلى التراب لا يعني أن جميع أجزائه تفنى وتفقد الحياة، بل يُبقي الله تعالى منه تلك الحالة المتطورة الدائمة بعد خلقه من الطين.. والتي يعيدها إليه ببعثة أخرى يحاسب فيها الإنسان بأعماله.

ومجمل القول إن خلق الإنسان بحسب تعليم القرآن، لم يكن دفعة واحدة ولا في وقت واحد، بل إنه تعالى أسس بنيان خلقه منذ بدأ خلق النظام الكوني، ثم أنبته من الأرض نباتا متطور النشوء في مختلف الأزمان، وأعطاه الصورة الإنسانية، ووهب له العقل والشعور.

ويذكر القرآن للإنسان حالة أخرى سابقة لتلك، وهي التي لم يوجد فيها حتى ولا جرثومته البدائية أو ذراته الأولى.. فيقول: ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ (مريم:٦٨). وفي هذه الآية يقرر أن الله تعالى مؤلِّف مادة الخلق الإنساني بعد أن خلقها من عدم.

وآيات القرآن الكريم تتناول موضوع الخلق مشيرة إلى مراحله المتعددة، منها مثلا:

* ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ (فاطر:١٢)
* ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (السجدة:٨)
* ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً﴾ (الفرقان:٥٥)
* ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾(الأنبياء:٣١)
* ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ (السجدة:٩)

ويتبين من هذه الآيات أن المرحلة الأولى لخلق الإنسان كانت دور نشأته من الطين، ثم لما تطورت نشأته بهذا الطريق أخذت ذريته تتناسل من ماء مهين.. ﴿مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ (القيامة:٣٨).

ويتضح أيضًا أن دور نشوء الإنسان من الطين يختلف عن دور تناسله من الماء المهين.

ثم إن القرآن فيما تحكيه آياته يبين لنا أن خلق الإنسان لم يكن بنشأة متطورة من الحيوانات الأخرى، بل إن الجرثومة الإنسانية منذ بدء الخلق كانت مستقلة بذاتها، مختصة لتكون بصورة الإنسان، فالله تعالى يقول في الآية إن ذرية الإنسان أخذت في التناسل بعد أن صار الإنسان بشرا سويا، ولكن التسليم بنظرية "دارون" يستلزم الإقرار بأن الإنسان كان يتناسل عن طريق الحيوانات حتى قبل أن يبلغ مبلغ البشرية.

وهناك آية أخرى تدلنا على حالة الإنسان قبل أن يكون بشرا.. قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الأِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُوراً﴾ (الدهر:٢).. أي أن الإنسان في هذا الدور من حياته لم يكن قد نشأت فيه القدرة الفكرية، و لم يكن عندئذ كائنا ناطقا عاقلا، وإنما كان كائنا منطويا على قوة كامنة للتقدم والتطور..

ثم تقول الآية التي تليها: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ (الدهر:٣). وفي هذا إشارة إلى أن تناسل الإنسان من خلال النطفة قد بدأ بعد أن ظهر بصورة الكائن الحي، وكانت نطفته هذه أمشاجا، أي خليطا من القوى المتنوعة التي تميز النطفة الإنسانية عن نطفة سائر الحيوانات. ونطف الحيوانات الأخرى ليست بأمشاج، أي أنها ليست خليطا من قوى مختلفة، لذلك فليست الحيوانات قادرة على اختيار طرق مختلفة. ولكن البشر الذين خُلقوا من نطفة أمشاج فهم مختلفون في أمزجتهم، وقادرون على الاختلاف في اختيار الطرق. أما القِرد فيتمتع اليوم أيضًا بنفس القوى التي كان يتمتع بها قبل آلاف السنين، وكذلك الأسد وسائر الحيوانات الأخرى.. ولكن ذرية الإنسان المخلوق من ﴿نطفة أمشاج﴾ اختلفوا عن آبائهم في أفعالهم وقواهم، فأصبحوا قادرين على التقدم المستمر في العلوم والفنون. وكأن في كلمة ﴿نطفة أمشاج﴾ إشارة إلى كون الإنسان حيوانا ناطقا.

وتكتمل الآية بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيراً﴾ (الإنسان:٣).

وهاتان الصفتان تدلان على المبالغة والكمال، وهما ميزتان تختصان بالإنسان دون سائر الحيوانات. الحيوان يسمع ولكنه ليس سميعا، لأنه لا يعقل ولا يفكر في ما يسمع. وهو يبصر، ولكنه ليس بصيرا، لأنه لا يتفكر فيما يرى ولا يُعمل عقله فيه. وهكذا فإن آدم كان أول مظهر لتلك القوى المودعة في النطفة الأمشاج والتي تجلت في الصفتين: السميع والبصير.

ولا يراد بالآيات السابقة النفي المطلق لوجود البشر قبل آدم، بل إنها تدل على أن الجنس البشري كان موجودا قبله، ولكن لم يكن أحد منهم مُتَّصفًا بهاتين الصفتين غير آدم عليه السلام، لأن قواهم لم تتطور إلى حد يؤهلهم لسماع كلام الله تعالى والنظر في آياته ومظاهر قدرته، فلذلك لم يترل إليهم عندئذ الوحي السماوي، و لم يظهر الله لهم آياته الخاصة بالشريعة. ولما ترقى الإنسان وتقدم في نشأته حتى صار ﴿سميعا بصيرا﴾.. اصطفاه الله لكلامه، وشرفه بوحيه. وقد ورد في القرآن الكريم ما يوضح المراد بهاتين الصفتين من أنهما تدلان على النظر الفكري والفهم لآيات الله وتدبرها.. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ*﴾ (هود:٢٤، ٢٥).

فالسميع البصير هو من عرف آيات الله فآمن بها وعمل الصالحات، وأما الذين لا يفطنون لها، أو لا يدركونها، أو يتعامون عنها ويعرضون.. فهم عمي صم.

مما سبق من الآيات يتبين أن خلق البشر، كما يقدمه القرآن الكريم، لم يكن دفعة واحدة، و لم يبدأ بخلق آدم عليه السلام، بل إن آدم كان أول مظهر لحالة الكمال البشري التي استحق بها أن يدعى إنسانا حقيقيا جديرا بحمل الشريعة. وبذلك جاز أن يكون آدم أبا البشر من الناحية الروحية، لأنه المبتدأ للعالم الروحاني، وكان أول إنسان تشرف بالوحي الإلهي، ولكنه ليس بالمحتم أن يكون أبا للبشر من الناحية الجسمانية، بل من الممكن أن يوجد عندئذ بعض بني نوع الإنسان من نسل أناس آخرين من البشر، منهم من آمن بآدم ومنهم من لم يؤمن به في حياته، ولكنهم لا زالوا يدخلون في نطاق المطالبين بالإيمان به.

وإذا تأملنا بعض آيات القرآن التي تتناول خلق آدم لتبين لنا أن النوع الإنساني لم يبدأ به، وأن كثيرين من البشر كانوا موجودين في عصره.. منها قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة: ٣١) .

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ (الأعراف:١٢).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طه:١١٦).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ*﴾ (الحجر ٢٧.. ٣٠).

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ*﴾ (ص:٧٢..٧٣).

فخلق الإنسان المذكور في هذه الآيات لا يشير إلى خلق آدم بذاته كما زعم بعض الناس، وإنما المراد به خلق البشر البدائي. ويجوز أن يكون الله تعالى قد أخبر الملائكة عند أول خلقه للبشر، بأن هذا البشر سيكون في يوم من الأيام المقبلة أحق بتلقي الوحي، ثم بعدئذ عندما حان استخلاف آدم أخبرهم مرة ثانية بقوله: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾، وذلك بعد أن تمت تسوية آدم لهذا المنصب الجليل، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾.

ويصدق هذا المعنى قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ﴾(السجدة: ٨-١٠)

تبين هذه الآية أن ترتيب خلق الإنسان كما يلي:

١. خلق الإنسان أولا من طين،

٢. ثم استمرار نسله بالنطفة المنوية،

٣. ثم تمام اكتمال القوى الإنسانية فيه،

٤. ثم بعد ذلك نزول الوحي الإلهي عليه.

فآدم الذي تشرف بكلام الله تعالى.. كان من ذرية الناس الذين خُلقوا من النطفة، وليس من الذين تطوروا من خلق الطين كحلقة أولى للبشرية.

وثمة آيات أخرى تدل على أن آدم عليه السلام لم يكن أول إنسان ظهر في الوجود، بل كان في عصره كثير من الناس الآخرين.. ففي سورتنا هذه يقول الله تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾. ويصح من الناحية اللغوية أن يكون المراد بالزوج الأصحاب والجماعة، وبمعنى ذلك أن بني نوعه أيضًا كانوا موجودين من قبله.

ثم قال عز وجل بعد هذه الآية: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة:٣٦).. وهنا الخطاب للجماعة، وبعدها قال: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقال أيضًا: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ (طه:١٢٤).

وخطاب آدم هنا يراد به جماعة آدم وجماعة الشيطان، وهما الجمع.

ولعل هناك من يتساءل عن أن مفهوم الآية الأخيرة يدل على أن الشيطان كان من جنس البشر، مع أن القرآن ينص على اختلاف جنسيهما حيث قال: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف:١٣)، وفي موضع آخر قال عن الشيطان: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الكهف:٥١).

كما جاء في الجن قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ (الرحمن:١٦).

وجوابنا على ذلك بأن القرآن يفرق بين إبليس والشيطان، فحيثما ذكر الامتناع عن السجود لآدم نسبه إلى إبليس، وحينما ذكر محاولة إغواء آدم أسندها إلى الشيطان.. وإليكم بعض الشواهد:

١- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ* فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (البقرة:٣٥-٣٧)

٢- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (لأعراف:١٢)

....﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ (الأعراف:٢١).

٣- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ (طه:١١٧)

.....﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ (طه:١٢١)

واختلاف الكلمتين في كل مرة لا يخلو من حكمة، والقرآن الحكيم يرعى الحكمة في كل كلمة من كلماته، فمن المستحيل أن يكون الاختلاف بين الكلمتين فيه دون حكمة.. فلزم أن يكون الممتنع عن السجود غير الذي حاول الإغواء.. ولذلك أطلق على الأول اسم: إبليس، وعلى الثاني اسم: الشيطان.

أما الجواب الأجدر بالاعتبار، فهو أن القول بخلق الجان من النار لا يعني ولا يستلزم أن يكون إبليس أو الجن قد خلقوا فعلا من النار المادية، وإنما يدل هذا الأسلوب اللغوي العربي على أن إبليس كان مطبوعا على طبائع نارية من التمرد والعصيان. ومثل هذا الأسلوب ورد في القرآن الكريم في مواضع أخرى مثل: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (الأنبياء:٣٨)، و﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ (الروم:٥٥).

والخلاصة:

١. أن خلق آدم كما أخبر القرآن الكريم.. لم يتم دفعة واحدة، بل إن الجزئيات الدقيقة تطورت في نشوئها، ومرت بمراحل عديدة مختلفة إلى أن تحولت للصورة الإنسانية.

٢. أن مكونات الإنسان منذ بدايتها في أبسط صورها كانت مهيئة لتكون في النهاية ذلك الكائن البشري، وليس كما زعم الفلاسفة.. نتيجة تطور مصادف في الحيوانات المختلفة.

٣. أن الوجود البشري الأول لم يكن يتلقى الوحي السماوي، ولكن جيلا من سلالته التي خلقت من نُطفة هو الذي وصل إلى حد من الكمال أهّله لتلقي الوحي، وأول من حاز هذا المقام الجليل هو مَن أسماه القرآن الكريم.. آدم.

٤. أنه كان قبل آدم، وفي زمنه، كثير من بني جنسه. وقد اختار الله تعالى آدم ليكون خليفة يجمع شملهم بنظام وهداية سماوية، وأن معاصريه هؤلاء أقاموا معه في تلك الجنة الأرضية التي عاش فيها، وأنهم أُخرجوا منها أيضًا معه.

وأذكر في هذه المناسبة حوارا جرى بين مؤسس الجماعة الأحمدية وبين مُنجم أسترالي حول مسألة خلق آدم. وقد زار هذا المنجم عدة مدن في الهند والتقى معه في لاهور حيث دار بينهما هذا الحوار:

سؤال: ورد في التوراة أن آدم أو الإنسان الأول ظهر في أرض جيحون وسيحون، وقطن هناك، فهل هؤلاء المقيمون في أمريكا وأستراليا وغيرها هم أيضًا من أبنائه؟

جواب: لسنا نقول بذلك، ولا نتبع التوراة في هذه القضية.. فنقول بما تدعيه من أن الدنيا بدأت بخلق آدم منذ ستة آلاف عام أو سبعة، و لم يكن قبل ذلك شيء، فكأن الله عز وجل كان متعطلا. كما أننا لا ندعي أن بني نوع الإنسان الذي يقطنون اليوم في مختلف أنحاء الأرض هم أولاد آدم هذا الأخير، بل إننا نعتقد بأن بني الإنسان كانوا موجودين قبله.. كما يتبين من كلمات القرآن الحكيم.. ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾. فلا يمكن لنا الجزم بأن سكان أستراليا وأمريكا من أولاد آدم هذا، ومن الجائز أن يكون بعض الأوادم الآخرين.

وأشير بهذا الصدد إلى كشف عجيب رآه الشيخ محيي الدين بن عربي، وهو شخصية إسلامية بارزة، فقد قال:

" أراني الحق تعالى فيما يراه النائم.. وأنا أطوف بالكعبة مع قوم من الناس لا أعرفهم بوجوههم، فأنشدونا بيتين نسيت أحدهما وأذكر الثاني وهو:

لقد طُفْنا كما طفتم سنينا بهذا البيـــت طُرًّا أجمعينـــا

فتعجبت من ذلك. وتَسمَّى لي أحدهم باسم لا أذكره، ثم قال لي: أنا من أجدادك. قلت:كم لك منذ مِتَّ؟ فقال: لي بضع وأربعون ألف سنة. فقلت له: فما لآدم هذا القدر من السنين؟! فقال لي: عن أي آدم تقول، عن هذا الأقرب إليك عن غيره؟ فتذكرت حديثا لرسول الله ﷺ "أن الله خلق مائة ألف آدم، وقلت: قد يكون ذلك الجد الذي نسبني إليه من أولئك". (كتاب الفتوحات المكيةج ٣، الفصل الخامس في المنازلات، باب ٣٠٩).

يفهم من هذا الكشف أن آدم الموحى إليه، والذي ينتسب إليه بنو آدم اليوم، لم يكن آدم الأول، بل إنه آخر الآوادم. وكذلك يظهر منه أن كلمة "آدم" قد تستعمل كصفة أيضًا بمعنى الجد الأكبر، وأن الوجود البشري ما زال مستمرا منذ أقدم العصور، وأن الدور المذكور في الأحاديث النبوية الشريفة.. والمحدد بسبعة آلاف سنة.. إنما أريد به دور آدم الأخير فقط.. وليس أدوار البشرية جمعاء.

ورب سائل يقول: إذا كان الجيل البشري موجودا قبل آدم المذكور، وأنه تتابعت ولادته عن نطفة، فلماذا إذن يقول القرآن الحكيم بأن الخلق من زوجين؟.. ولماذا قيل في الحديث النبوي أن المرأة قد خلقت من ضلع أعوج؟

والجواب على ذلك أن الآيات المتضمنة لهذا الموضوع.. لا تذكر آدم بتاتا، بل إنها تصرح بأن الله تعالى خلق الإنسان من نفس واحدة وجعل منها زوجها.. فيقول:

١. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ.. ﴾ (النساء:٢).

٢. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٩).

٣. ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (الزمر:٧).

ولا يراد بالنفس الواحدة هنا البشر الأول أو آدم عليه السلام.. وإنما يراد بها أن الأفراد والآحاد تنشأ منهم الأمم الكبرى، وأن الأجيال إذا اقتفت آثار آبائهم صاروا مثلهم.. إنْ كفارا فكفارا، وإن مؤمنين فمؤمنين.

أما قوله تعالى: ﴿جعل منها زوجها﴾ فيعني أنه تعالى خلق زوجها من نوعها ليكون الزوجان متجانسين.. يؤثر أحدهما في الآخر.

ولا يخطئنّ أحد فهمَ حديث الرسول ﷺ: "استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خُلقت من ضلع" (صحيح مسلم، كتاب الرضاعة، باب الوصية بالنساء).. فالحديث لا يختص بزوج آدم، بل يخص جميع نساء العالم، وهيئة ولادة النساء معلومة مشهودة، ولا يريد الحديث المعني الظاهري للضلع، بل إن المراد به: "فإنهن خلقهن من ضلع استعارة للمعوج، أي خلقن خلقا فيه الاعوجاج" (كتاب مجمع بحار الأنوار، ج١،للشيخ محمد الطاهر).

والخلاصة أن الآيات السابقة والحديث المذكور.. لا يدلان على أن آدم الذي جعله الله خليفة كان هو أول البشر، أو أن زوجته خلقت من جسمه، ولكن الآيات تتناول جميع بني الإنسان كقاعدة كلية شاملة لجميع هذا النوع رجالا كانوا أو نساء.

تمدُّن آدم

ولما كان آدم عليه السلام هو أول من جعله الله تعالى خليفة في هذه الأرض، كي يقيم التمدّن الإنساني، وهو الهدف الحقيقي من بعثته واستخلافه.. كان من المناسب هنا أن نذكر المبادئ التي تأسس عليها تمدن آدم:

١. نظام الزواج: إذ شُرع لأتباعه ما لم يكن قد عرفوه من قبل من علاقة شرعية محددة بين الرجل والمرأة طبقا لأمر الله تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة: ٣٦)

٢. نظام التحليل والتحريم: فقد بدأ الأمر بالعمل طبقا لبعض الأحكام والنهي عن بعض الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. (البقرة: ٣٦)

٣. نظام التعاون على تهيئة وسائل الطعام والشراب للجميع.

٤. نظام الكساء.

٥. نظام السكن.

ويجمع هذه النظم الثلاثة الأخيرة قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى*وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى*﴾ (طه:١١٩-١٢٠). وليست هذه صورة مفصلة لجنة آدم كما زعم بعضهم خطأ، بل إنها الصورة المرسومة لتمدن آدم والتي دعا إليها المجتمع الإنساني الأول. إن اجتماع الناس يؤدي أحيانا إلى حرمان قسم من الناس من وسائل الغذاء والكساء، فعلى الآخرين الذين يتمتعون بخيرات التمدن أن يسعوا جهدهم لسدّ هذا الفراغ، ويتعاونوا على إعانة الفقراء والمسنين والعاجزين، ويهيئوا لهم حاجتهم من الغذاء والكساء والخباء.

الخلافة

إن كلمة ﴿خليفة﴾ تطلق على المعاني التالية:

١. الذي يخلف عن قوم أو شخص خلا.

٢. الذي ينوب عن حاكم أعلى في حياته لتنفيذ أحكامه ببلد آخر.

٣. الذي يقوم من بعد شخص ليضطلع بسلطاته ويدير أعماله، أو يواصل نسله وولده.

ولكن معنى هذه الكلمة في القرآن الكريم يتردد في ثلاثة استعمالات:

١. الخليفة بمعنى النبي، كما في آيتنا الحالية؛ لأن فضيلة آدم لا تتوقف على مجرد الأبوة لجيل جديد، بل إن فضيلته الكبرى هي تشرفه بالنبوة كما تصرح هذه الآية. وقد وُصف داود عليه السلام بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ..﴾ (ص: ٢٧)

٢. الخليفة من يخلف عن قوم هلك مِن قبل.. كما جاء على لسان هود عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ..﴾ (الأعراف: ٧٠).

٣. الخليفة الذي يخلف عن نبي ويقتدي بأثره، ويوجه قومه إلى شريعته، ويجمع شمل أمته؛ من الأنبياء كان أو غيرهم..كما قال موسى لهارون عليه السلام: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف:١٤٣).

والأمة الإسلامية موعودة في القرآن بهذه الأنواع الثلاثة من الخلافة وعدا مؤكدا، لكن مع الأسف ظل المسلمون معرضين عن هذه الحقيقة فلم يستفيدوا من نعمة الخلافة حق الاستفادة، وفقا لقوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور:٥٦)

ولقد أوفى الله عز وجل بوعده في حياة النبي ﷺ، إذ أورث المسلمين مكانة الأمم الخالية، وأهلك أعداءهم ودمرهم تدميرا. فلو تمسك المسلمون بالإيمان والعمل الصالح لظل عزهم وشرفهم ثابتا شامخا، ولكنهم، وأسفاه، انصرفوا بعد برهة من الزمان عن الدين، واندفعوا نحو الدنيا.

إن الجماعة الإسلامية الأحمدية تعتقد أن الله تعالى قد فتح بمؤسسها مرزا غلام أحمد (عليه وعلى مُطاعه الصلاة والسلام) أبواب النبوة المحمدية النابعة من معين سيده وسيدنا ومولانا محمد المصطفى ﷺ.. تلك النبوة اللائقة بشأنه الأجلّ الأعظم، والمختصة بأمته فقط، والتي تعكس أنوار كمالاته ﷺ، لأجل إصلاح هذا العصر الغاصّ بالفتن، ولاسترداد مجد الإسلام الغابر، وبهذه الجماعة جدد الخلافة للأمة المسلمة، وأنشأ بها جماعة نشيطة تلبي دعوة الخلافة إلى خدمة الإسلام، ولا تزال بفضل الله تعالى، وببركة الاقتداء الكامل بالمصطفى ﷺ ساهرة على الكفاح المتواصل لاستعادة حقوق الإسلام والمسلمين في جميع أنحاء العالم. وليس ببعيد ذلك اليوم المبارك الذي تعلو فيه كلمة الإسلام الحق، وتندحر جموع الكفر.. مصداقا للبشارة الإلهية:

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر:٤٦).. إن شاء الله، وهو على كل شيء قدير.

الملائكة

وفي هذه الآية الكريمة جاء ذكر الملائكة، ويحسن بنا أن نذكرها ببعض التفصيل، إذ إن الجيل الجديد من الشبان المتأثرين بالفلسفة العصرية.. بعد أن أخطئوا الطريق إلى معرفة الله تعالى، وتقاصروا عن إدراك وجوده وصفاته عز وجل، ظنوا أن وجود الملائكة باطل لأنه ينافي الألوهية؛ والذين لم تزل بهم عقيدة دينية طمأنوا أنفسهم بقولهم إن الملائكة ليست إلا من قبيل المشاعر الصالحة التي يختلج بها قلب الإنسان.

والواقع أن وجود الملائكة لا يتعارض أبدا مع كمال الألوهية، وأيا كانت الصورة التي اخترتموها من هاتين الصورتين، فإن وجود الملائكة لا يكون مظنة الارتياب والاعتراض. فإذا كان الله تعالى فعالا منذ الأزل تسألنا: هل كان يتخذ عندئذ وسائط مِن مخلوقِه لأجل القيام بأعماله.. أي أكانت هناك سنن طبيعية لوجود هذا الكون عند بدء الخليقة أم كان كل تطوّر يحصل بنفسه دون أي قانون أو سبب، كعجائب الشعوذة والسحر؟ ولئن سلّمنا بأن كيان هذا العالم وبنيته تقتضي خضوع كل تطور حادث

فيه لقاعدة أو سنة ما.. اضطررنا للتسليم بأن الله عز وجل خلق بعض الوسائط لتكوين هذا العالم، وأصدر سننا خاصة سببت وجود هذا العالم بهذه الصورة. فإذا سلمنا بذلك، ولا بد من التسليم، فلا مفر إذن من الإقرار بأن وجود الملائكة أربأ وأسمى عن الاعتراض، لأنه إذا لم يكن اختيار وسيلة ما منافية لقدرة الله تعالى، فإن اختيار وسيلة غيرها لا يُعدّ أيضًا منافيا لقدرته عز وجل.

وكذلك إذا اعتقدنا بأن لله عز وجل علاقة فعالة بإدارة هذا العالم اليوم أيضًا، فلا داعي إذن إلى الاعتراض على وجود الملائكة.. فإن الله تعالى يستعمل النطفة الإنسانية للولادة، ويبرد غليل الإنسان بالماء، وينور على العالم بالشمس.. وإذا كانت هذه الوسائط لا تنال من قدرته، فكيف يكون توسيطه تعالى للملائكة في إدارة نظام هذا الكون مدعاة إلى المساس بكبريائه وجبروته؟

والحق.. كما يتبين من القرآن، وتُصدّقه نواميس القدرة الإلهية، أن الله عز وجل، بقدرته الكاملة أخضع نظام العالم لقانون واسع متشعب.. يقول تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (النازعات:٢٩-٣٠)، وتدلنا هذه الآية على أن النظام السماوي مؤسس على قانون كامل.. منه ما هو خفي كالليل، ولا يتبين إلا بإمعان النظر وإمعان التدبر؛ ومنه ما هو ظاهر واضح وضوح النهار، ويتبين من الوهلة الأولى.. هذان النوعان من نواميس القدرة واضحان للناظرين فيهما، فالشمس والقمر مثلا يعرف الناس بعض تأثيراتهما، ولكن بعض أسرارها في غاية الخفاء حتى أن العلماء المتخصصين لا يزالون يبحثون فيها لمعرفة أسرارهما.

إن أول حلقة في سلسة العلل والمعلولات هي الملائكة. فالقول بأن وجودها ينافي القدرة الإلهية وهمٌ أوهى من بيت العنكبوت.. فإن العالم كله قائم على آلاف العلل والمعلولات، ولا يقول عاقل بأن هذه القوانين تتعارض مع قدرة الله تعالى، فكيف يكون وجود الملائكة كحلقة أولى في السلسلة مما ينال من قوته وسلطانه عز وجل. إذا كان النور سببا لإبصار العين، وذبذبات الهواء علة لحاسة السمع.. ولا يمس ذلك قدرة الله، فكذلك وجود الملائكة كعلّة في إدارة نظام هذا الكون لن ينال شيئًا من قدرة الله تعالى.

وكما أن الملائكة هي العلة الأولى لخلق الإنسان، كذلك هي العلة النهائية للاتصال بالله تعالى؛ يقول عز وجل: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم: ٤٣).. أي أن المصير النهائي لكل مخلوق لإلى الله تعالى. وهذا الاتصال الأخير يتم عن طريق الملائكة كما يُفهم من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (غافر:٨).

ونوجز القول هنا عن الملائكة بأنهم كائنات روحانية، خلقهم الله تعالى كالحلقة الأولى في خلق العالم المادي، وجعلهم مدبرين له. وهم ليسوا عند الله تعالى كأصحاب الحظوة المقربين عند الملوك؛ بل إن الله تعالى أوجدهم سببا مبدئيا وعلة أولى لإدارة نظام هذا العالم، ولإجراء التطورات والتغيرات الظاهرة في

الكون، وهم لا يبرحون قائمين على إحداث التطورات في العالم بإذن الله تعالى، وطبق القواعد التي حددها عز وجل.

إن الذين مروا بتجارب روحية أتيحت لهم معرفة الملائكة ومشاهدتهم، فقد ورد في الإنجيل نزول الملائكة على بعض الصالحين والصالحات، ونزول جبريل على المسيح الناصري عليه السلام. وذكر القرآن الكريم والأحاديث النبوية نـــزول الروح الأمين جبريل على سيدنا ومولانا محمد المصطفى ﷺ. وفي هذا العصر حظي مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية بهذا الاتصال الملائكي. كما إنني تشرفت شخصيا ببعض المشاهدات بفضل الله تعالى ورحمته. إن الذين يحسبون الملائكة مجرد قوى كامنة في الإنسان يبنون رأيهم على الوهم والجهل وإنكار تجارب الصادقين، ولكن المرء إذ نال المشاهدة الشخصية لا يمكن له إلا اليقين بحقيقة وجودهم.

إن هذه الآية الكريمة تشكل الدليل الناصع على أن من سنة الله المستمرة بعث الأنبياء عند مقتضى الحاجة إليهم، وأنه تعالى عند ذلك يخبر ملائكته بخبر ظهور النبي، فينشط كل منهم في نطاق عمله، ويحرك في الأجواء التيارات الخاصة بتأييد ذلك المبعوث ونصرته.

وتحمل الآية أيضًا إشارة إلى أن مثل هذا الاعتراض ليس بمستغرب أو مستبعد عند بعثة المصطفى ﷺ، وعند نزول القرآن الكريم، بل كان لا بد من ذلك وفقا لسنة الله المتواترة منذ آدم عليه السلام.

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

آدم: أبو البشر. قيل هو اسم أعجمي، وقيل هو مشتق. وعندي هو مشتق من: أَدَمَ يأدَمُ بينهم أدْمًا: ألَّف وَوَفَّق. وآدَمَ الخبزَ: خلطه بالإدام. وآدَمَ أهلَهُ: صار لهم أسوة. وأديم الأرض سطحُها.

والأدمة الوسيلة (الأقرب). فيسمى آدمُ آدمًا لأنه جمع الناس على تمدن؛ أو لأنه تكوَّن من عناصر وقوى متعددة، أو لأنه صار أسوة لقومه؛ أو لأنه عاش على سطح البسيطة؛ أو لأنه كان وسيلة بين الله تعالى وبين عباده.

الأسماء: الاسم اللفظ الموضوع للدلالة على الجوهر أو العرض لتمييزه؛ والعلامة (الأقرب)؛ والاسم: ما يعرف به ذات الشيء أو أصله، والاسم: الصفة (الكليات).

عرضهم: عرض الشيءَ له: أظهره له. عرض المتاع للبيع: إذا أظهره للراغبين في شرائه. عرض الشيء عليه: أراه إياه (الأقرب).

صادقين: صدق في الحديث ضد كذب. صدقه الحديث: أنبأه بالصدق (الأقرب). صدقني فلان: قال لي الصدق"التاج". وفي البخاري ومسلم أن جبريل سأل الرسول ﷺ سؤالا، فلما أجابه قال له: صدقت، أي أصبت القول.. وهذا هو المعنى المراد في الآية.

التفسير: لقد اختلف المفسرون في الأسماء التي عُلِّمها آدم. فقال البعض أنها أسماء الأشياء مثل كوب وقدر.. بمعنى أنه علمه اللغة (الدر المنثور). وزاد عليه البعض أنه علمه كل اللغات (فتح البيان)، ولكن هذا المعنى خلاف للعقل والنقل كلية. وقال آخرون إنه علمه أسماء أولاده (الدر المنثور). ولكن إذا رجعنا إلى القرآن نفسه عرفنا بسهولة حقيقة هذه الأسماء.

لا شك أن الإنسان عندما شرع في التمدن كان بحاجة إلى لغة، ولا بد أن الله تعالى قد علَّم آدم لغة ما، ولكن القرآن الكريم يخبرنا أن ثمة أسماء خاصة يجب على الإنسان أن يتعلمها ليكمل له دينه وخلقه، ولا يمكن أن يعلمها إلا الله جل وعلا. يقول الكتاب الكريم: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:١٨١).

يتبين من هذه الآية الكريمة أمران:

الأول: أن الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى والاتصال به هي أن يعلم الإنسان أسماءه، أي صفاته.. علما صحيحا.

والثاني: أن العلم الصحيح بهذه الأسماء لا يتأتى إلا بتعليم من الله تعالى، وأن محاولة إدراكها بالاجتهاد الشخصي يوقع المرء في الخطأ. ولما كان آدم ﷺ قد بُعث لتأسيس الدين، وتعزيز علاقة المخلوق بالخالق جل وعلا، فلذلك كان من اللازم أن يتعلم من الله تعالى الصفات الإلهية، ويعرفها بأسمائها.. كي تعرف أمته إلهها وتتصل به. وإذا لم يتعلم آدم تلك الأسماء خيف عليه وعلى أمته من الإلحاد والانحراف عن الدين.

ويتبين من الآيات التالية أن الأسماء التي علمها الله تعالى آدمَ لم تكن معروفة للملائكة تمام المعرفة. والأسماء التي لا يعرفها بكاملها جميع الملائكة فردا فردا إنما هي الصفات الإلهية، لأن الملائكة كما وصفهم القرآن الكريم ﴿يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل:٥١).. فهم يعرفون ما يؤمرون بفعله، أما ما سوى ذلك فأنى لهم معرفته؟

نعم، لا يعلم الصفات الإلهية علما كاملا إلا الإنسان، وليس الملائكة من هذا العالم الكامل في شيء. إنهم يعلمون من الصفات ما يتصل بنطاق عملهم فحسب، ولكل منهم عمل محدد لا يتجاوزه، فهو

يعرف صفة واحدة أو بعض الصفات. أما الإنسان، فكما يؤكد القرآن الكريم، يعلم الأسماء كلها. إن الإنسان مزوّد بالقدرات التي تجعله أهلا لأن يتصف بتلك الصفات. إنه يصلح للاتصاف بالصفات الإلهية، فيكون رحيما وغفارا وقهارا وجبارا وشكورا.. ولكن الملائكة لا تصلح لأن تجمع كل تلك الصفات في واحد منها.

ويرى بعض المفسرين أن الآية تشير إلى معنى تعليم اللغة أو اللسان. وأرى أن الآية تتضمن هذا المعنى أيضًا، لأن اللغة ضرورية لتأسيس مجتمع متمدن. ويبدو أن الله تعالى علم آدم مبادئ اللغة التي تأسست عليها اللغات.

وبالتدبر في معنى الآية يتبين لنا أن تلك اللغة هي اللسان العربي؛ فالآية تصرح أن آدم عليه السلام تعلم الأسماء عن طريق مسمياتها، بمعنى أن أساس اللغة التي تعلمها قام على علاقة بين الأسماء والمسميات، أي أن كل شيء سُمِّي باسمه بناء على خواصه، فلم تكن الأسماء بدون سبب يربطها بمسمياتها. وهذه الميزة مختصة باللغة العربية دون سائر اللغات.. لأن الأسماء فيها تفيد التعرف على الشيء، ولو غيرنا أسماء المسميات ما حدث خلل ما. فمثلا باللغة الأردية يسمى الطعام المصنوع من الغلال "روتي" ويسمى بالإنجليزية "برد" وبالفارسية "نان".. ولو استبدلناها بأية أسماء أخرى ما كان لذلك أثر يذكر. ولكن اسم هذا الطعام في اللغة العربية "خبز" وهو اسم ذو معنى.. إذ إن مادة "خ ب ز" تدل على الصنع والانتفاخ. فمثلا بزخ: نفخ صدره وأبرزه، خزب: سمن بدون مرض أو عيب، خبز: صنع شيئا بضرب الكفين بسرعة. فالخبز شيء صنعته الأيدي بسرعة، وهو أيضًا منتفخ. وهذه الكلمة تصوير حقيقي لهذا الطعام. والآن، لو استبدلنا كلمة "خبز" بكلمة أخرى ما أفادت هذا المعنى.

وخذ مثلا كلمة "رب" ومعناها في العربية الذي يربي ويرتقي بالشيء من حالة أدنى إلى حالة أعلى. ولا يتأتى هذا المفهوم باستبدالها بكلمة أخرى.

ثم كلمة "سماء" مشتقة من "س م و" التي تدل على الارتفاع والعلو، ولكن كلمة "آسمان" الفارسية أو "سكاي" الإنجليزية لا تبين هذا المدلول.

و لا أعني بذلك أن سيدنا آدم تعلم اللغة العربية بشكلها الحالي، أو أنها لم تتطور بعد آدم عليه السلام.. وإنما أعني أن أصول تلك اللغة هي التي تطورت وتوسعت وقامت عليها اللغة العربية فيما بعد.

فالمراد بتعليم اللغة أن الله تعالى علم آدم لغة مبنيّة على حكمة، إذ إنها متناسقة في ربطها بين المبنى والمعنى، أي أن كل كلمة فيها ذات معنى تعبر عنه.. أو بعبارة أخرى، إن الله العليم الخبير علَّم آدم اللغة العربية التي صارت فيما بعد أمًّا لسائر اللغات. (راجع كتاب "منن الرحمان" لمؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، الذي بيّن فيه بالبيان الرائع كيف أن اللغة العربية هي أم الألسنة).

ويمكن أن يراد بقوله: ﴿وعلم آدم الأسماء﴾ التعليم الفطري الطبيعي دون التعليم الحاصل عن الوسائل الخارجية، فالفطرة الآدمية مزودة بصلاحية التعلم. و﴿الأسماء﴾ من ناحية هذا المعنى هي خواص الأشياء. فنرى الإنسان منذ عهد آدم وإلى اليوم، لا يزال عاكفا على الاختراع والاكتشاف في شتى نواحي الكون، وعلمه يزدهر بذلك ويتقدم كل يوم. وما الأسماء إلا تلك الخواص والصفات الطبيعية والمنافع التي يبتكرها للأشياء.

وقوله ﴿كلها﴾.. لا يراد منه جميع الصفات الظاهرة في كل الأزمان، وإنما ما يتصل منها بعصر آدم من الصفات. ومن الممكن أن تكون مستوعبة لكل الصفات، ويكون معنى الآية في هذه الحالة أن الله تعالى أودع في آدم وذريته كفاءة لإدراك كل الصفات؛ فكأن تعليم الأسماء لآدم كان بالقوة وبالإجمال، أي تزويده بالقدرة على الإدراك، وبصفة عامة وليس بالفعل وبالتفصيل.. وإن كان التعليم بالفعل والتفصيل قد بلغ ذروة كماله بوجود سيدنا ومولانا محمد ﷺ.

وكذلك ليس المراد بتعليم أسماء اللغة تعليم كل أسمائها وموادها، بل المراد به تعليم مبادئ اللغة التي تطورت فيما بعد بصورة اللغة العربية المتكاملة.

وفي قوله ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾.. لا يعود ضمير الغائب "هم" على الأسماء. لأن الضمير لجمع المذكر العاقل.. وكلمة "الأسماء" مؤنثة ومؤكدة بكلمة "كلها"؛ وتبين من ذلك أن الضمير راجع إلى المسمّيْن بهذه الأسماء دون الأسماء نفسها. ولا يلزم من قوله ﴿عرضهم﴾ أن يكون العرض بصورة مادية، فمن الممكن أن يكون بصورة كشف المظاهر المقبلة للأسماء، وبخاصة إذا كان الضمير "هم" راجعا على ذرية آدم في المستقبل.

كما يمكن أن يكون المعروضون على الملائكة هم أولئك الأعوان والأنصار الذين وهبهم الله لآدم بعد أن تعلم الأسماء وتولى الخلافة، والذين كانوا مظاهر لصفات الله المختلفة. ويكون المعنى أن الله تعالى عرضهم على الملائكة بعد أن أثمرت فيهم تربية آدم وتعاليمه، وأصبحوا مظاهر للصفات الإلهية، وسأل الملائكة: أخبروني عن صفات هؤلاء إذا كان رأيكم السابق في البشر صادقا. إن هؤلاء أبناء الصلاح والسلام، ولا يمكن أن يصدر عنهم فساد أو سفك دماء. أمّا أعداء آدم وحاسدوه فهم على عكس أولئك الأوفياء، وليس آدم مسئولا عنهم.

والحق أن بعثة كل نبي كانت مقرونة بسفك دماء وهياج فتن، لكن ذلك لم يكن ناشئا عن أعمال الأنبياء وأتباعهم، ولم يكن بهم رغبة في ذلك ولا يرضونه، بل كان يحدث على عكس إرادتهم وبسبب شرور أعدائهم. فالفساد الذي يظهر ليس من فعل الأنبياء، وإنما هم مخرجوه من صدور الفاسدين دفينا في أعماقهم، ويكونون عاملا قويا في إخراج الخبائث الباطنية لاجتثاثها من نفوس الأشرار.

ويتبين من معاني الآية أن الله تعالى يطلع الأنبياء على شيء من مواهب أتباعهم والأنبياء المبعوثين من بعدهم. فنرى جليا أن سنة الله مع من بعثوا بعد آدم من الأنبياء أنهم ما زالوا ينبئون ببعثة نبي أو أنبياء يأتون من بعدهم، أما سيدنا ومولانا محمد ﷺ الذي جمع الله فيه الكمالات كلها فقد أخبر ببعثته كل نبي. وكذلك بالنظر في حياة الأنبياء نجد أنهم ينكشف لهم أحوال خاصة أتباعهم بصورة إجمالية، ولذلك نرى أنه لم يخطئ نبي قط في اختيار أصحابه واصطفاء أنصاره، أي لم تجتمع أغلبيتهم على الخطأ بتاتا. ويا ليت إخواننا الشيعة أدركوا هذه الحقيقة فكفُّوا عن معاداة الخلفاء الراشدين.

يظن البعض أن تعليم الصغار في مدارس وروضات الأطفال حيث يتبع أسلوب خاص للتعليم، فلا يعلمون الأطفال عن طريق حفظ ما في الكتب، بل يكون ذلك بتعليم أسماء الأشياء بعرضها عليهم مما يساعدهم على حفظها دونما ضغط على أذهانهم وذاكرتهم.. أقول يحسب البعض أن هذا الأسلوب من مستحدثات أوروبا، ولكن القرآن الكريم يقدم في هذه الآية الوجيزة هذا الأسلوب التعليمي تقديما رائعا. إن الله تعالى لم يعلم آدم بحفظ الأسماء عن ظهر الغيب، بل علّمها إياه بعرض مسمياتها الملموسة المشهودة عليه، وتعيين خواصها بصورة عملية.

ثم إذا جاء دور تعليم الملائكة فلم يجبهم بالكلمات فقط، بل اتبع نفس الأسلوب و﴿عرضهم على الملائكة﴾.. أي عرض عليهم الأشياء بصورتها الأصلية، أو في صورة كشف.. إذ طريق التعليم المؤثر أن تعرض الأشياء بأصلها أو نماذجها مع أسمائها وخواصها ووظائفها. فأول درس على منهاج روضة الأطفال لم يكن في أوروبا أو ألمانيا على وجه الخصوص.. بل كان في الجنة.. أو روضة آدم، فكانت بذلك أول روضة لتعليم الأطفال. حيث علم الله تعالى بوحيه آدم ثم الملائكة.

ومن الأمثلة الحديثة للتعليم الإلهي ما جرى مع مؤسس الحركة الإسلامية الأحمدية في هذا العصر، إنه لم يتعلم في مدرسة من المدارس، ومع ذلك لما بدأ في تأليف الكتب باللغة العربية امتثالا لأمر الله تعالى.. علّمه الله في ليلة واحدة أربعين ألف مادة من اللغة العربية، فقام بعدها يتحدى العلماء في كل العالم بأن يأتوا بمثل هذه الكتب في بلاغتها وما تحتويه من أدق المعاني.. تحداهم جميعا أو آحادا، ولكن لم يكن لأحد أن يأتي لها بمثيل حتى اليوم، رغم كثرة توزيعها وقتئذ في البلاد العربية. ومثل هذا الإعجاز ليس إلا ثمرة لإعجاز القرآن الكريم وتصديقا له.

قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٣﴾

شرح الكلمات:

سبحانك: نُبرئك اللهم من السوء براءة. "راجع الشرح السابق في آية رقم ٣١".

الحكيم: العالم، صاحب الحكمة؛ المتقن للأمور. والحكمة: العدل؛ العلم؛ الحلم؛ ما يمنع من الجهالة؛ كل كلام موافق للحق؛ وقيل: وضع الشيء في موضعه؛ وصواب الأمر وسداده (الأقرب).

حكم: منع منعا للإصلاح، من ذلك يقال للّجام حكمة، قال الشاعر: "أَبَني حنيفة أحكِموا سفهاءكم".. أي امنعوهم من السفاهة (المفردات).

التفسير: يتبين من نص ما قاله الملائكة أنهم لم يكونوا بسؤالهم يعترضون على الله سبحانه وتعالى، ولا يحتجون باستحقاقهم للخلافة، وإنما كانوا يستفسرون عن الحاجة الداعية إلى تأسيس هذا النظام الجديد.. مع ما يضمره من خطر سفك الدماء وانتشار الفساد. كان سؤالهم استفهاما عن الحقيقة، وكان الجواب الممكن إما بالنفي البات لإمكان سفك الدماء والفساد بعد الخلافة، أو بإقرار ذلك الإمكان مع تأكيد أهمية هذا النظام لبني نوع الإنسان، وإيضاح أن نفع النظام الجديد أكثر من ضرره.

وكان الوجه الثاني للجواب هو الأصح لنظام الخلافة الإنسانية، وهو الذي صدر الجواب به: إنه لم ينفِ عن النظام إمكانية حدوث شيء من سفك الدماء والفساد، فذلك ممكن على يد بعض الجناة، ولكنه صرح بأن النظام سينتج عنه شخصيات عظيمة متحلية بعديد من صفات الله عز وجل، ولذلك فلا بد من خلق مثل هذه الشخصيات القادرة على إظهار الصفات الإلهية على الأرض، على الرغم من وجود الشخصيات الناقصة أيضًا، فذلك أنفع جدا لنظام العالم.

وكان من الممكن أن يكون هذا الوجه من الجواب على قسمين:

الأول: أن يدعم بالأدلة العقلية.

الثاني: أن يؤيد بالدليل العلمي، فيظهر مواهب الخليفة الأول وكفاءاته بصورة واقعية، ويكشف للملائكة وجود الكُمَّل من أتباع آدم. ومثل هذا الجواب يكون أقوى تأثيرا وأعظم إقناعا. وهذا ما اختاره الله تعالى إذ علم آدم صفاته، فأثبت بالاتصاف بها أنه لا يمكن أن يُظهر الصفات الإلهية ظهورا كاملا إلا مَن يكون مُخيَّرا بين الخير والشر، فيطغى عليه الحب الإلهي فيندفع نحو إنماء قوى الخير في نفسه ليتقرب إلى الله.

ويتبين من قول الملائكة أنهم قد اطمأنوا بجواب الله كل الاطمئنان، وأنهم اعترفوا بأن علمهم ناقص ومحدود بالنسبة إلى علم الإنسان الموهوب من لدن الله تعالى، وأنهم أقروا بأن الله تعالى هو وحده العليم الحكيم الذي لا يخلو فعل من أفعاله من الحكمة الكاملة.

ويتبين أيضًا من التفسير السابق لهذه الآية أن الرد المفصل لما جرى لآدم إنما يهدف إلى تحديد الغاية من خلق الكون وتعيين حكمته، ويرمي إلى بيان أن سبب نزول الوحي السماوي في كل زمن إنما هو لتحقيق هذه الغاية. فكأن الذين يعترضون على بعثة الأنبياء إنما يعترضون على إرادة الله تعالى لتحقيق غاية خلق الإنسان.. فهذا اعتراض يفند نفسه بنفسه، وليس بمانع لنزول الوحي.

أما قول الملائكة: ﴿لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ فليس المراد منه الأمر البديهي من أن علمهم مقصور على ما علمهم الله، وإنما لبيان أن علمهم لا يزداد كازدياد علم الإنسان الذي زوده الله بالقدرة عليه، وأن ما آتاهم الله تعالى من قوى لا يستطيعون بها أن يدركوا شأوَ الإنسان في علومه المتنوعة الجامعة، أي أنهم أيقنوا بأن الإنسان مخلوق لحكمة، وأنه مكلف بعمل لا يستطيعونه، وأن خلق الإنسان لفعلٌ حكيم من أفعال الله عز وجل، وإن كان بعض جنسه سببا لسفك الدماء وإثارة الفتن.

قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾

شرح الكلمات:

تبدون: بدا الأمر: ظهر، وأبدى الأمر: أظهره (الأقرب).

تكتمون: كتم الشيءَ أو الحديثَ: أخفاه، كتم الفرسُ الرَّبوَ أي ضاق منخره عن نَفَسه (الأقرب). فحالة عجز الفرس عن إخراج نفَسه تسمى كتما. وقد قال ابن عباس في قوله تعالى (ولا يكتمون الله حديثا) أن المشركين إذا رأوا أهل(يوم) القيامة لا يدخل الجنة إلا من لم يكن مشركا قالوا: (والله ربنا ما كنا مشركين).. فتشهد عليهم جوارحهم، فحينئذ يودون أن لم يكتموا الله حديثا (المفردات).

التفسير: مع أن الملائكة فهموا على وجه الإجمال الغرض من خلق آدم عليه السلام.. ولكن استكمالا للدليل أمر الله تعالى آدم ببيان كمالات الخاصة من أمته أو نسله لكي تتبين الحقيقة عمليا بعد أن اتضحت علميا.

وليس المراد بهذه الآية أن محادثة جرت بين رب العزة وبين الملائكة وآدم، بل إنها تعبر عن بعض الحقائق بلسان الحال، حسب أساليب اللغة العربية المعروفة مثل قولهم: قالت له العينان سمعا وطاعة، أو قولهم: امتلأ الحوضُ فقال قَطْنِي.. فليس ضروريًا أن يكون هذا الحوار قد تم فعلا بين الله وآدم، بل يمكن

أن يكون آدم قد بدأ بأمر الله تعالى بيان الصفات الإلهية التي كان من المقدر ظهورها عن طريق نسله، وهكذا انكشف للملائكة مدى الرقي الروحاني الذي يمكن أن يحققه الإنسان.

كما ليس المراد من تعليم آدم أن الله أجلسه أمامه يعلمه، وإنما معناه أنه تعالى آتاه علم الصفات الإلهية واللغة وخواص الأشياء؛ إما بالوحي الخفي أو بالوحي الجليِّ أو بكليهما. وقوله: ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ يعني أن آدم عليه السلام لّما شرع في بيان تلك الصفات الإلهية التي سوف تظهر في أمته عامّة وفي الكاملين منها خاصّة، عَلِم الملائكة أن لا أحد يستطيع الاتصاف بالصفات الإلهية كما يقدر الإنسان على ذلك.

أما والأمر كذلك.. فقد انكشف للجميع أن الله تعالى العليم الخبير، هو الأعلم بحاجات الأرض ومقتضياتها لنزول الفضل الإلهي، وهو أعرف لما تتطلب صفاته عز وجل. إنه العليم بما أودع في الملائكة من القوى: ظاهرة يبدونها، وباطنة لا يمكن لهم إظهارها. ومن الخطأ أن يتصور أحد أن الملائكة حاولت إخفاء شيء عن الله تعالى، وإنما يُراد بالكتمان هنا: العجزُ والقصورُ الفطري، إذ إنهم لا يملكون الإرادة والحرية التي يتمتع بها الإنسان.. ولكنهم يظهرون ما زُوِّدوا به من صفات، ويكتمون ما ليس بوسعهم من صفات.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

اسجدوا: سجد: خضع وذل؛ انحنى. وسجد البعير: خفض رأسه. وسجدت السفينة للرياح: أطاعتها ومالت بميلها. يقال: فلان ساجد المنخر: ذليلٌ؛ خاضع. والسجود: التذلل (الأقرب). وقوله تعالى: ﴿اسجدوا لآدم﴾: قيل: أمروا بالتذلل له والقيام بمصالحه ومصالح أولاده؛ أو معناه اسجدوا لأجل خلق آدم. وقوله ﴿ادخلوا الباب سجدا﴾: أي متذللين منقادين (المفردات).

لآدم: اللام تأتي صلة لسجد تقوية لمعنى السجود وتعديته، كقوله ﴿اسجدوا لله﴾؛ كما تأتي لمجرد الصلة وتؤدي معنى من معانيها المستقلة وهي العلّة والسببيّة.. كما قال امرؤ القيس: "ويوم عقرت للعذارى مطيتي". فيكون معنى ﴿اسجدوا لآدم﴾: أي اسجدوا لله بسبب خلافة آدم.

إلا: حرف استثناء، أي إخراج ما بعده من حكم ما قبله، والاستثناء في اللغة على ضربين: استثناء متصل، وهو أن يكون المستثنى منه والمستثنى من جنس واحد كقولهم: جاءني القوم إلا زيدا، فزيد واحد من جنس القوم؛ واستثناء منقطع، إذا لم يكن المستثنى من جنس المستثنى منه كقولهم: ما جاءني القوم إلا حمار .

إبليس: أبلس: قل خيره؛ يئس من رحمة الله؛ انكسر وحزن؛ أبلس في عمله؛ تحير؛ سكت غمًّا. أبلس غيره: جعله يائسا. فإبليس هو ذلك الذي قلّ جانب الخير فيه، وتحير وارتبك، ويئس من رحمة الله، ولا يزال مغموما. (الأقرب)

أبى: أباه: لم يرضه (الأقرب). الإباء: شدة الامتناع (المفردات). أباه:كرهه. الإباء: الامتناع عن الشيء والكراهية له لبغضه وعدم ملاءمته (التاج).

استكبر: كان ذا كبرياء. استكبر الشيءَ: رآه كبيرا وعظم عنده (الأقرب). الكبر: الحالة التي يختصّ بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره. والاستكبار يقال على وجهين: (١) أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصيرا كبيرا، (٢) أن يتشبَّع فيظهر من نفسه ما ليس له (المفردات).

كان: من الأفعال الناقصة، ويدل عموما على حدوث الفعل في الماضي. ويكون بمعنى "صار" أيضًا. فمعنى ﴿كان من الكافرين﴾ كان من قبل كافرا؛ صار من الكافرين.

التفسير: من المحقق أن السجود بمعنى العبادة لغير الله تعالى يناقض تعاليم القرآن الكريم، وأن الملائكة لا يسجدون لغير الله تعالى أبدا، ولذا فإن المراد من الأمر الإلهي ﴿اسجدوا لآدم﴾ لا يعني سجود التعبد لآدم، وإنما يعني: اسجدوا لله بسبب استخلافه آدم، لأن الله تعالى قد أسس هذا النظام الرائع، فكأن الله عز وجل حينما أثبت للملائكة بالدليل العملي أن خلافة آدم لها حكمتها السامية، إذ أنيط بها الظهور الكامل لصفات الله تعالى، عندئذ أمر الله الملائكة أن يسجدوا له عز وجل سجود حمد على هذه النعمة.. وذلك كما نرى أن عباد الله الشاكرين يخرون سجدا حينما تتراءى لهم مظاهر قدرة الله تعالى وجبروته.

ونظرًا إلى هذا المعنى، ينبغي على المؤمن أن يخر ساجدا لله كلما نزل عليه فضل الله، لأن ذلك أدعى إلى زيادة نزول أفضاله جل وعلا.. ولكن مع الأسف أن كثيرا من الناس بدلا من أن يشكروا، يأخذهم الاستكبار عندما يحظون بنعم الله، ويحسبون ازدهار أعمالهم من آثار نبوغهم وبراعتهم.

والسجود هو الطاعة أيضًا، فقوله ﴿اسجدوا لآدم﴾ يعني أطيعوه وانقادوا له.. أي قوموا بمصالحه ومصالح أولاده. ومن ناحية هذا المعنى يكون المراد من الأمر بالسجود أن الله عز وجل بعد أن شرف آدم

بالخلافة، أمر الملائكة بطاعته، وقال إن آدم اليوم هو مظهر مرضاتنا في الدنيا، فعليكم أن تساعدوه في مهمته وتعاونوه على إنجاز ما كلف به، وتُسخِّروا له من هذا النظام الكوني ما هو تحت إدارتكم، والذي أنتم حلقة من حلقاته. ﴿فسجدوا﴾ أي فاندفعوا نحو تأييد آدم والعمل على تحقيق عزائمه.

وقوله تعالى ﴿إلا إبليس﴾ استثناء منقطع، و﴿إلا﴾ لا ترادف "سوى" فى هذا المكان وإنما تعني "لكن".. أي لكن إبليس أبى.

وهنا يمكن أن يتساءل أحد: إذا كان إبليس من غير الملائكة فلماذا ذُكر معهم حينما أُمروا بالسجود والطاعة؟ وإذا لم يكن مأمورا ومكلفا فلماذا طلب منه السُّجود؟

والجواب عن ذلك أن الملائكة هم مدبرو أمر هذا الكون طبقا لقول الله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ (النازعات:٦)، فهم العلة الأولى لإدارة نظامه، ولذلك يكون الأمر الصادر إليهم عاما يشمل جميع من يليهم من الأفراد. ولقد جاء في الحديث النبوي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل عليه السلام: إن الله أحب فلانا فأحِبَّه، فيحبه جبريل. ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله أحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض" (صحيح البخاري). وهذا الحديث يبين تسلسل الأمر الإلهي حتى يصل إلى الناس فيما يتعلق بالأمور التي تخص البشر. فأمر الله تعالى للناس يبدأ بالملائكة.. فإذا ما صدر لهؤلاء فقد شمل السلسلة كلها حتى البشر.

وقوله تعالى: ﴿أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ بيان لموقف إبليس من السجود لآدم، لقد أبى إبليس لأنه لم يرَ هذا النظام ملائمًا لنفسه. إنه في تقديره نظام ناقص.. فمن مقتضيات الإباء الامتناع عما يحطُّ من شأن المتأبّي.. إن الناس يرون الحقائق بمنظار أهوائهم ومصالحهم الشخصية، ولا يرونها في ضوء المصالح العامة، فإذا وجدوا فيها إضرارا بمصالحهم العاجلة.. نسوا عاقبتهم وأعرضوا عن مصالح عامة الدنيا، واجتهدوا وشمروا لمعاداة الحق.

والاستكبار دافع ثان لإنكار الحق ورفضه. ولقد عبر إبليس عن هذا الاستكبار بقوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف:١٣). فزها بكونه ناري الطبع، وأن آدم طيني الطبع إذ يتشكل في كل القوالب كالعبيد. وهكذا فإن اتباع الحق الذي يورث الإنسان خُلُق التواضع هو في نظر أعداء الحق معرة ومنقصة. إنه عندهم ينافي المصالح الوطنية والملّية.. ويرون أهل التواضع خونة لبلادهم. إنهم يتباهون بشراستهم وطبائعهم الشريرة، ويحسبون أنهم بعاداتهم العدوانية قادرون على تشييد مجدهم. إنهم ينخدعون بما يحصلون عليه من إثارة الشر والفتن.. ولكن ذلك كله لا يحقق المصالح الثابتة الدائمة.

والسبب الثالث للإباء أن يرى المرء ما يُعرض عليه كبيرا ومستحيلا، وقد عبّر عن هذا الأمر في قوله تعالى على لسان الكفار: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً﴾ (الفرقان: ٢٢)، فهم يحسبون لقاء الله تعالى أمرا مستحيلا فأبوا أن يصدِّقوه.

والسبب الرابع للإباء أن يعتاد المرء إنكار الحقائق، ويدل على ذلك وصف الله له في قوله: ﴿وكان من الكافرين﴾.. واليوم أيضًا نجد أن المنكرين للحقائق يتعرضون لمثل هذه الأوضاع. وليت الناس حاولوا إدراك تلك الحقائق متخلين عن هذه العيوب الأربعة، فعرفوا أن الله تعالى قد فتح لهم في هذه الأيام أبوابا واسعة للتقدم والرقي، وأتاح لانتصار الإسلام وسائلَ عديدة، ولكن قلَّ منهم من يجرؤ على ملاقاة التضحيات وجها لوجه لكي يحظوا فيما بعد بالحياة الخالدة لهم وللإسلام. ولكنهم يبذلون كل جهد لتحقيق المصالح العاجلة وإن كانت مؤقتة زائلة. يا ليت قلوبهم انشرحت وتطهرت من الصدأ!

يرى البعض أن انخداع آدم بكلام إبليس أمر غير معقول.. فقد حذره الله تعالى منه صراحة، وقال له عز وجل: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (طه:١١٨)، بينما ذكر فى القرآن في مكان آخر براءة آدم عليه السلام من هذا الظن فيقول: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طه:١١٦)!؟

ويمكن تفسير هذا التعارض الظاهري باعتبار الشيطان الذي خدع آدم غير إبليس الذي حذر الله تعالى آدم منه. إن آدم انخدع من الشيطان و لم يعرف أنه أيضًا من أعوان إبليس وأظلاله، فلم يأخذ الحذر منه. فوقع في الخطأ. وهذا ما يؤكده القرآن، فإنه كلما ذكر الكائن الذي امتنع عن السجود سمّاه ﴿إبليس﴾، وهو الذي حذر الله آدم منه، ولكنه كلما ذكر الذي وسوس لآدم وأخرجه من الجنة سماه ﴿الشيطان﴾. فالقرآن يقرر أن المخرج هو إبليس، والموسوس هو الشيطان.

فإبليس هو الكائن المخالف للملائكة والمحرض على الشر، والشيطان اسم عام يطلق على جميع القوى الشريرة.. يمكن أن يطلق على إبليس نفسه، أو على غيره ممن يتبعه، أو ينوب عنه في إغواء الناس وتوجيههم إلى المنكرات، وإغرائهم على مقاومة رسالة الأنبياء. والشيطان على عكس إبليس يطلق أيضًا على الأرواح الخبيثة كما يطلق على بني البشر؛ غير أن استعماله في المعنى الأول أكثر من استعماله في وصف الإنسان.. كما جاء في وصف المنافقين حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ (البقرة:١٥). والمراد بالشياطين هنا أئمة الكفر؛ كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٧٦)؛ وكقوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا

لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ (الأنعام: ١١٣).. .فهؤلاء كلهم أهل الشر الذين يتزعمون المعارضة والتحريض عليه.

الملائكة وإبليس:

لقد تساءل البعض.. هل خلق الله تعالى إبليس كي يضل الناس؟ هل يريد الله سبحانه أن يضلل عباده؟

الواقع أن الأمر على العكس من ذلك.. فالله عز وجل زوّد الإنسان بالقدرة على الخير والشر، وخلق معه الملائكة وأظلالهم وإبليس وأظلاله أيضًا. الفريق الأول يُرغِّب القلوب في الخيرات، والفريق الثاني يغريها على الشرور، فالذي يلبي دعوة الملائكة وأظلالهم استحق الأجر، والذي ينقاد لتحريض إبليس وأوليائه يستحق العقاب. والكمال الإنساني يتطلب أن يكون الإنسان مخيرا بين هاتين الحركتين، لكي يحكم بنفسه ويختار الطريق الذي يقبله، فيستحق بذلك النعم العليا. ولولا تعرضه لمحال الشر لما أمكن أن يكون مستحقا لأعلى النعم وأمثالها.

أجل، لقد أوضح القرآن الكريم أيما إيضاح.. أنه ليس لإبليس ولا للشيطان أي تصرف في أمر أحد من الناس.. فهم مخيرون بين اتباعه ومخالفة تحريضه، كما يقول تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر:٤٣)

وقصارى القول: أن القرآن الكريم يدلنا على أن حركات إبليس لا تتأسس على دليل أو برهان، ولكنها تقوم على الوعد والوعيد بأمور مزخرفة كاذبة.. كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ (الإسراء:٦٥). لذلك فلا يمكن القول بأن الله قد عمل على أن يضل عباده بخلق إبليس، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.. إنما كان يصح ذلك لو أنه عز وعلا قد أعطى للشيطان سلطانا من عنده، لكن الأدلة كلها تؤيد الملائكة دون إبليس، فمن يتبع إبليس إنما يتبعه باختياره، وهو مسئول بنفسه عما يفعل.

إن الله عز وجل في قوله ﴿إلا إبليس﴾ جعل إبليس تابعًا للملائكة، الأمر الذي يدل على أن الخير غالب، والشر مغلوب، وعلى أن الملائكة هم المدبرون لنظام هذا الكون، وهم منابع الخير؛ وإبليس ما هو إلا الانحراف عن طريق الخير. وقد صرح القرآن الكريم مرارا بأن الإنسان مفطور على الخير، فقال: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *﴾ (الشمس:٨ إلى١١). ومعنى ذلك بلفظ آخر.. أن الإنسان مفطور على الاستعداد لقبول توجيه الملائكة، وعندما يولد يكون بريئا من تدخل الشيطان، لكن بعدئذ يقتفي هو بنفسه آثار الشيطان فيهلك. وقد

وضح ذلك الحديث النبوي: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" (البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين).

وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

زوجك: راجع شرح الكلمات في الآية ٢٦ من السورة.

رغَدًا: رغد عيشُه رغدًا: طاب واتَّسع (الأقرب). والرغَدُ الكثير الواسع الذي لا يُعييك من مالٍ أو ماءٍ أو عيشٍ أو كلأ (التاج).

حيث: تفيد ظرفية الزمان والمكان.. أي كلوا من حيث شئتم ومتى شئتم (الأقرب).

الظالمين: جمع ظالم. ظلَمَ ظُلما: وضع الشيء في غير موضعه. وظلم فلانًا: فعل له الظلم. ظلم حقّه: نقصه إياه. والظلم كذلك تجاوز الحد والاعتداء على حقوق الغير (الأقرب). والظلم ثلاثة: الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق.. لذلك قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾. والثاني: ظلم بينه وبين الناس. والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد في قوله تعالى: "فمنهم ظالم لنفسه" (المفردات). فالظالم (١) مَن يضع الشيء في غير موضعه ويعمل عملا في غير محله، (٢) مَن ينقص حقوق الآخرين، (٣) مَن يتجاوز الحد ويعتدي على ملك غيره، (٤) المشرك، (٥) مَن يفعل الظلم.

التفسير: قيل إن هذه الجنة التي دخلها آدم هي الجنة التي يدخلها الصالحون بعد الموت ، أي أنها جنة سماوية. ولكن ذلك خطأ بالبداهة، ذلك (أولا) لأن القرآن الكريم يقول: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾، فكيف يعقل أن يرسل الله آدم لإقامة نظامه السماوي في الأرض ويُبقيه في السماء. (وثانيا) لقد وصف الله تعالى الجنة الأخروية في سياق قصة سيدنا آدم الواردة في سورة الحجر بقوله: ﴿لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر:٤٩).. ولكن آدم عليه السلام أُخرج من الجنة التي عاش فيها، فلم تكن جنة آدم هذه إذن جنة سماوية، وإنما كانت جنة أرضية.. (وثالثا) تصرِّح الآيات القرآنية أن الشيطان وذريته دخلوا تلك الجنة، ولما كان دخول الشيطان وذريته في الجنة السماوية محالا.. فلا يمكن أن تكون الجنة المشار إليها في هذه الآية هي جنة النعيم الأخروي، وإنما هي جنة أرضية.

ويستنبط من الآية أيضًا أن آدم عليه السلام كان يسكن مع زوجته أو أصحابه في موضع ما، ثم انتقل منه بأمر الله إلى موضع آخر سماه الله "الجنة"، لأن كلمات الآية تقول ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾، فالله تعالى يوجهه ليغادر مكانه إلى مكان آخر أفضل منه.

وجاء في العهد القديم: "وغرس الرب الإله جنة من عدن شرقا، ووضع هناك آدم الذي جبله" (تكوين، صح٢:٨). وأشار العهد القديم بعد ذلك إلى أن هذه الجنة تسقى من دجلة والفرات. فكأن شهادة العهد القديم بصدد هذه الجنة خليط من الحقيقة والمجاز، وهي تحدد حدود تلك الجنة بجوار دجلة والفرات. وهناك من القرائن ما يجعل شهادة العهد القديم أقرب إلى الصواب؛ فأحوال نوح عليه السلام وقومه تتصل بهذه المنطقة، وإبراهيم عليه السلام مولود في "أور" بالعراق. وتدل البحوث العصرية والحفريات الحديثة على أن هذه المنطقة كانت موطن أقدم حضارة إنسانية. كل ذلك يحمل على الظن بأن آدم مولود في أرض العراق، وأن الجنة التي ذكرت في قصته تقع في موضع من هذه المنطقة، وأنها سميت بالجنة لحسن نظامها الذي وضعه آدم.

ومما يصدق ذلك أن الآثار التي اكتشفها الباحثان "هال" و"ووليه" ترجع إلى ٣٥٠٠ عام قبل المسيح، وبعضها أقدم من ذلك."دائرة المعارف البريطانية، تحت كلمة أور".

وإننا حينما نرى في غرب شبه الجزيرة العربية أقدم بيت من بيوت الله، وهو الكعبة المشرفة في مكة، وفي شرقها أقدم آثار الحضارة في "أور"، وفي المنطقة وقعت أقوى التطورات في التاريخ المعلوم.. فإننا لا نستبعد أن يكون مولد آدم أو مبدأ التطور البشري الحضاري في هذه المنطقة.

وفي قوله ﴿رغدا﴾ إشارة إلى أن طيب العيش واتساعه وخصوبته والرخاء في لوازم الحياة.. إنما هي من ثمار المدنية التي تهيئ للإنسان حياة وفيرة المرافق. فالآية تشير إلى مزايا التمدن الاجتماعي الذي يسبب توفير لوازم الحياة وادخارها لمواجهة الحاجات المفاجئة.. وهذه هي الجنة الأرضية التي قام بنيانها على التمدن الاجتماعي، والتي أسسها آدم عليه السلام.

إن الأمم التي توجه اهتمامها إلى هذه الناحية.. ناحية التمدن والاجتماع، تحقق لأفرادها خفض العيش والدَّعة. ولقد سارت الأمة المسلمة على هذا المبدأ، وطبقت تعاليم السماء بشأنها في عهدها الأول، فكان كل فرد فيها كبيرا وصغيرا بمأمن من الجوع والعري والفقر.

ولا يظنَّن أحد أن هذا الأمر من الأمور الدنيوية البحتة، فالحق أن هذا المنهج من الحياة هو الذي يساعد على نجاة الإنسان من المعاصي. إن الفقر والحرمان من أقوى الدواعي إلى السلب والنهب والغش، والأمة التي توفر لأفرادها جميعا مأكلهم وملبسهم ومسكنهم.. إنما توفر لهم أسباب النجاة من الوقوع في حفرة المعاصي، وتبعدهم من أقوى الحوافز على العدوان والشرور. نعم، قد يبدو هذا الأمر ذا مظهر

دنيوي سياسي، ولكنه في الواقع من صميم الدين، ويساعد على اجتثاث جذور المآثم والمعاصي. إن من أسباب انتشار النزاعات الدولية هو ذلك البون الشاسع بين الأثرياء المترفين والفقراء الصقْعى الدقْعى، ولئن تأسس في العالم نظام يهيئ لكل إنسان ما يلزمه من وسائل الحياة، فقد حُسمت كل النزاعات والخصومات.

ويشير قوله تعالى: ﴿حيث شئتما﴾ إلى أن تسهيلات الانتقال والإقامة من أهم عناصر الحياة الإنسانية المدنية الكاملة، وأنه يجب رفع القيود المفروضة على السفر والإقامة من بعض الدول ضد دول أخرى، والتي تهدف بها إلى الاستئثار بنعم الله الواسعة وحرمان الناس منها. إن هذه القيود كبيرة من الكبائر التي تثير الحسد والشر. مثلا هناك قارة عظيمة المساحة والخيرات مثل أستراليا يسكنها بضعة ملايين من البشر، ويمنعون الآخرين من الإقامة فيها.

وعن قوله تعالى: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.. قيل إن الشجرة هي شجرة القمح أو العنب، أو هي المرأة. وقيل هي شجرة التمييز بين الخير والشر. ومثل هذه المعاني مستبعدة عقلا، لأن الاقتراب من شجرة القمح أو العنب لا يجعل المرء ظالما.. فكلاهما حلال.. بل قال الله لهما: ﴿فكلا منها رغدا﴾ أي كلوا حتى تشبعوا من طعام هذه المنطقة. أما المرأة فقد أمر الله تعالى آدم أن يسكن هناك مع امرأته. كما أنه ليس هناك شجرة لمعرفة الخير والشر، وإن كان هناك مثل هذه الشجرة فليس من الظلم أن يميز الإنسان بين الخير والشر، لأن التمييز بين الخير والشر يجعل الإنسان أشرف من الحيوانات الأخرى.

يتبين من القرآن الحكيم أن هذه الشجرة قد تسببت في انكشاف عورة آدم، وفي هذا دليل على أن الشجرة المذكورة ليست شجرة نباتية أرضية حقيقية، وإنما هي شجرة على سبيل المجاز.. فإننا لم نرَ على البسيطة شجرة يؤدي الاقتراب منها أو أكل ثمارها إلى كشف العورات، كما لا نجد لا في الشريعة الإسلامية ولا في غيرها من الشرائع السابقة شجرة يحرم أكلها شرعا. ويؤكد هذا المعنى أيضًا قول القرآن بأن اقتراب آدم وزوجته وأصحابه من تلك الشجرة سيجعلهم من الظالمين، في حين كان من المفروض أن يقول القرآن بأنه سيجعلهم من الآثمين، لأن الظلم قد ورد في القرآن الكريم بمعنى الشرك بالله، أو بمعنى هضم حقوق الغير. وأيضًا لو أنها كانت شجرة مادية ملموسة مرئية لكانت مقاربة آدم إياها عصيانا متعمدا، وليس عن خطأ أو نسيان، لكن القرآن الكريم ينص على أن آدم قد نسي و لم يتعمد ذلك، الأمر الذي يدل على أن تلك الشجرة لم تكن مادية، بل كانت شيئا معنويا.

فما هي تلك الشجرة إذن؟ لقد استعيرت كلمة الشجرة في القرآن الحكيم لمعان طيبة ولمعان مكروهة. يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ... ﴾ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ

خَبِيثَةٍ﴾ (إبراهيم:٢٥،٢٧). ومن ناحية هذا المعنى فإن الله تعالى أمر آدم أن يتجنب شجرة المنكرات. أما وقد شبه الله عز وجل نظام الحسنات التي وهبت لآدم بالجنة، كذلك وصف الأمور المناقضة لهذا النظام بالشجرة التي نهى عن مقاربتها؛ فكأن الله تعالى يخبر آدم ومن معه بأنهم قد أمروا بالإقامة في جنة الحسنات هذه، بالابتعاد عن الأمور المعاكسة لها لكيلا تضيع منهم تلك الجنة.

وعلى ضوء هذا المعنى.. يكون من السهل جدا تفهم خطأ آدم في أمر من دقائق الأمور، إذ كان من اليسير أن يخدعه أحد في هذا. فمع أنه من الممكن أن يكون المراد بالشجرة الممنوعة كل تلك المنكرات التي نهى الله تعالى آدم عنها، إلا أن الابتعاد عن الشجرة، في ضوء موضوع هذه الآية، يعني خاصة أخذ الحيطة والحذر من إبليس وذريته، لأنه أقسم بإغواء آدم وذريته. ويؤكد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (طه:١١٨). ومما يؤيد هذا المعنى أيضًا استعمالنا لكلمة ﴿شجرة﴾ بمعنى ﴿شجرة النسب﴾. فالامتناع عن الشجرة إذن إنما يعني أخذ الحيطة من إبليس وذريته.. أي أصحابه وأعوانه. فإطلاق تسمية ﴿الشجرة﴾ على إبليس استخدام لطيف للغاية، إذ شبّه بذلك إبليس وأعوانه بشجرة محرمة، مكتفيا بذكر جذعها الرئيس، وهو إبليس، الذي يتفرع منه سائر الأعوان والذراري.

و لا يغيبن عن البال أن محادثة الله عز وجل مع آدم لم تكن كالمحادثات الإنسانية، بل كانت بصورة وحي سماوي مما يتلقاه الأنبياء، وما زال الوحي السماوي محلّى بألوان من الاستعارات والمجازات والتمثيلات العديدة. أمر الله تعالى آدم بأن يقيم فى مكان هو كالجنة راحة ونعمة، ووهب له شريعة تحوِّل هذه الدنيا إلى الجنة، وأنعم عليه بزوج وأصحاب كانوا منقادين له مطيعين، محولين هذه الحياة إلى جنة آمنة، فنظرا لكل هذه النعم الجليلة، أمر الله عز وجل آدم وأصحابه معه بالإقامة في تلك الجنة؛ بينما نهاه عن صفات معاكسة للجنة باستخدام كلمة الشجرة. فاستعمال كلمة ﴿الشجرة﴾ جاء لأجل مناسبتها لكلمة ﴿الجنة﴾. وقد أشير بذلك إلى الأمور التالية:

١. أن أصل التعاليم التي تلقاها آدم من ربه هو الحِلّ، أما التحريم فهو لأجل الضرورة.

٢. أن جماعة آدم ستكون هي الغالبة والأكثر عددا، وأن أعداءه سوف يتحولون إلى أقلية، بحيث تكون النسبة بين آدم وجماعته من ناحية.. وأعدائه من ناحية أخرى.. كالنسبة بين جنة كثيرة الأشجار وشجرة مفردة محدودة النطاق.